يَومَ أنْ أحببتُ

(قصتان)

يَومَ أنْ أحببتُ

(قصتان)

رغد أيمن

الإهداء

لن أكون أول، ولا آخر من يبعثُ إليكَ إهداءً..
إليكَ يا د. أحمد خالد توفيق..
رحمكَ الله.. يا من جعلتَ الشباب يقرأ

الفهرس

أكنتُ أُحبكِ؟! 6

يَوم أنْ رأيتكِ! 55

القصة الأولى

(أكنتُ أحبكِ؟!)

"رامي"

"آه، وأخيراً.. العودة للوطن"..

تنهدتُ وأنا أهمس بها.. حسناً، سأكذب إن قلتُ أنني سعيدٌ بعودتي لمصر.. خرجتُ منها ليس للمتعة أو التسلية، ولكن لأنني لم أجد ذاتي داخل الوطن.. وبالطبع أعني بذاتي، العمل والوظيفة..
جلستُ على مقعدي، وكانت تجاورني فتاة.. نظرتُ إليها بتمعّن.. يا إلهي! أجمل امرأة أوروبية رأتها عيناي.. أعتقد أنها ذاهبة لمصر للسياحة..

- أنا **"رامي"**، ما اسمكِ أيتها الجميلة؟
قلتُها بفرنسية جيدة.. ابتسمتْ ثم صافحتني مُجيبة:
- **"راشيل"**.. أنتَ عربي أليس كذلك؟
ضحكتُ، ثم أومأتُ بالإيجاب.. ابتسمتْ ثم قالت:
- اسمكَ من أخبرني.. ولكن ملامحكَ لا توحي بذلك مطلقاً.
زفرتُ داخلي بملل، إذاً هي تحسب أن العرب جميعهم سُمر الوجوه، سود الشعور جَعدِوها!

كدتُ أخلد للنوم قليلاً، ولكن رسالة أتت لي نبّهتني.. فتحتُها، وإذ هي من **"شيري"**.. تسألني إذا ما كنتُ سأعود لمصر اليوم فعلاً.. أكدّتُ على ذلك، فأجابتني "إذاً ستأتي لتُحادث أبي بشأننا؟".. تأففتُ بضجر، طبعاً هي تقصد أن آتي لخِطبتها! لقد بدأتُ أملّ هذه الفتاة، كلما تحدثنا أخبرتني بأنها تحبني كثيراً وأنها لا تستطيع تصوّر أن تُخطب لأحد غيري!.. طبعاً كنتُ أُطمئنها بزيف، ولكن في قرارة نفسي لن يحدث ذلك مطلقاً.. **"شيري"**، لكي أسلي وقتي معها وفقط، وإذا ما أردتُ أن أخطب فتاة فسأختار تلك التي لا تعلم شيئاً.. وليست تلك التي خانت ثقة والديها من أجل رجل!

*****

لا أدري كم مرّ من الوقت، إلى أن شعرتُ بنقراتٍ رقيقة على كتفي.. فتحتُ عينيّ، ولأول مرة يُقابلني وجهٌ رائع الجمال كهذا بعد استيقاظي.. ابتسمت **"راشيل"** وقالت:
- اربِط حزام الأمان.

أنهيتُ الإجراءات المُعتادة، ثم سرتُ طويلاً حتى رأيتُ أختي وزوجها ينتظرانني بابتسامة.. احتضنتُ أختي بشوق، صافحتُ زوجها ثم خرجنا ونحن نتحدث ونضحك..

بعد ساعتين، وصلنا أخيراً للمنزل بسبب الزحام.. حسناً لم يكن منزلاً بالمعنى الحرفي للكلمة، كان شبيهاً بالقصر.. فقد كان جدي -رحمه الله- يُحب أن تكون عائلته مُجتمعة وتسكن في مكان واحد، ولكن يا للقدر! فبعد أن بناه وأنهى كل شيء يتعلق به، إذ فاجأه الموت..

دخلنا القصر، وطبعاً كان هناك الكثير من الأحضان والاستقبال الحارّ.. أمي وأبي.. خالتي وجدتي..
بحثتُ بعيني عن **"رينـاد"** ابنة خالتي.. كنتُ بحاجة لأن تراها عيني حتى أشعر بالراحة..
رأيتُها تقف بخجل، ونظراتها تنتقل بين أفراد الأسرة..
اقتربتُ منها لأسلم عليها، فتراجعتْ قليلاً للوراء.. مددتُ يدي لأُصافحها وقلتُ بابتسامة:
- كيف حالكِ؟
احمرّت وجنتاها وتجاهلت يدي الممدودة ناظرةً للأرض وقالت بخفوت:

- الحمد لله، أنا بخير.
ثم أعطت لي ظهرها، وخرجت ناحية الحديقة.. هل تجاهلتني للتو؟! تعجبتُ كثيراً منها.. فسألتُ أبدد هذا الحرج:
- إذاً أين **"مصطفى"**؟
و**"مصطفى"** هو أخو **"رينـاد"** الأكبر..
أجابتني جدتي بابتسامة:
- استدعوه في المشفى ليُجري عملية طارئة.. لا تقلق سيعود بعد قليل.

ذهبتْ النساء تجاه المطبخ، وذهبنا أنا وأبي وزوج أختى للحديقة لنتحدث إلى أن يعود **"مصطفى"** ثم نتناول الغداء..
تلفتُّ بعيني علِّي أراها.. فرأيتُها تجلس على الأرجوحة، تُمسك بين يديها الرقيقتين كتاباً تقرأه..
يبدو أنها مُندمجة جداً لدرجة أنها لم تلحظ حديثنا الصاخب وضحكنا..

شارد الذهن كنتُ وسط أحاديث والدي وزوج أختي..
لمَ يا ترى رفضت أن تُصافحني؟ هل تخاف مني، أم تكرهني؟..

آلمني قلبي عند ذكري لهذين الاحتمالين، ولا أدري السبب..
"ريناد" كانت تجذبني بشخصيتها الخجولة الطفولية.. لا تُحب الحديث بكثرة، تفضل الصمت أكثر الأوقات.. وبالطبع تُحب القراءة بشكلٍ لا يوصف..

استأذنتُ منهما لأذهب إليها، فرأيتُ زوج أختي يبتسم بخبث.. تجاهلتُه، ثم سرتُ تجاهها.. استندتُ على عارضة الأرجوحة وسألتُها بابتسامة:
- هل هذا الكتاب شيق، لدرجة أنكِ لم تلحظي وجودنا؟
اتسعت عيناها، واستقامت من مكانها قائلةً بحرج:
- تعلم أني لا أشعر بما حولي عندما أقرأ.
تمتمتُ: "أعلم جداً!"، ثم سألتُها مرة أخرى بهدوء:
- لماذا رفضتِ أن تُصافحيني؟ هل تخافين مني؟!
نظرتْ لأزهار اللافندر وأجابت بثقة، اندهشتُ كثيراً أنها تمتلكها:
- لا أُصافح الرجال.
تعجبتُ من إجابتها، وقلتُ:
- ولكني ابن خالتكِ، أي أنني لستُ أي رجل.
أكملت بهدوء:
- أنتَ لستَ مَحرماً لي.

ثم تركتني مرة أخرى، وذهبت لداخل القصر.. جلستُ مكانها بشرود، اه يبدو أنها نسيت كتابها.. نظرتُ لعنوانه..
"قواعد العشق الأربعون".. ابتسمتُ باتساع، ثم أمسكتُه مُقرراً أن أُعيده لها..

*****

يبدو أنني انشغلتُ ونسيتُ أن أصِف القصر..
في البداية الحديقة، لم تكن فخمة أو مُبالغ فيها.. كان جمالها في بساطتها.. أزهار اللافندر المتناثرة التي تحبها جدتي، والتي تذكّرني ب**"ريناد"**.. الأرض المبلّطة.. مجموعتين من الأرائك بينهما مسافة.. مجموعة للرجال، وأخرى للنساء.. وطبعاً لا ننسى الأرجوحة، التي اتفق الجميع ضمنياً أنها لصغيرتنا **"ريناد"**..
أما بالداخل، فأول شيء هي الصالة.. صالة واسعة كبيرة، ذات ألوان هادئة فاتحة.. كان القصر بثلاثة طوابق، كل طابق به أربع غرف كبيرة.. على سبيل المثال، فقد كانت غرفتي كأنها شقة صغيرة.. كانت بها شرفة واسعة، حمام متوسط الحجم.. وهكذا تقريباً باقي الغرف..

وبالطبع لا ننسى غرفة الطعام المقدسة، تدخلها وكأنك دخلتَ غرفة ملكية.. مائدة طويلة، وكراسٍ جميعها باللون الذهبي..

*****

مرّ اليوم، ولم أرَ **"ريناد"** إلا مرات نادرة.. وكلما التقت عينانا كانت تُسارع بالنظر بعيداً بوجنتين مُحمرّتين..

تأففتُ بضجر وأنا مُستلقٍ على السرير.. هل عامين من السفر خارج البلاد يُغيّرانها هكذا؟! أشعرُ أنها تتجنبني باستمرار، وهذا يؤلم قلبي بشدة.. لم أعتد ذلك منها، نعم في بداية ارتدائها للحجاب، وبعد أن دخلت المرحلة الاعدادية كنتُ أرى منها تحرّزاً في معاملتي.. فحسبتُ أنها تعليمات والدتها.. ولكن هذا الجفاف! أف، ما بي أصبحتُ عاطفياً هكذا.. اه بمناسبة العواطف، أريد أن أتذكّر محادثة تلك ال**"شيري"** لأُنهي معها الموضوع، فهي بدأت تُلحّ عليّ بشكل يُثير الاشمئزاز..

*****

بعد أسبوع، قررنا أن نذهب جميعاً للتنزه.. سعدتُ كثيراً، وأنا أعتبرها فرصة لأتحدث مع **"ريناد"**..

وقفتُ أمام مرآتي أنظرُ لنفسي.. شعرٌ بني ناعم، عينان زرقاوتان جميلتان.. والأهم ملامح وسيمة.. ومع كل ذلك ف**"ريناد"** تقريباً الوحيدة التي لم تثبّت عينيها على وجهي لثوانٍ.. أم أنني ما زلتُ مُتأثراً بأخلاق فتيات أوروبا؟!

أنهيتُ ارتداء ملابسي، التي كانت سوداء بالكامل، ورششتُ من عطري المفضّل.. صففتُ شعري وارتديتُ ساعة يدي ثم اتجهتُ للخارج.. لحسن حظي قابلتُ **"ريناد"** على السلّم.. جميلة كانت، ربما ليس بجمال الأوروبيات.. ولكنها جميلة.. كانت ترتدي فستاناً أسود وحجاباً قرمزياً، وتُمسك بيدها حقيبة سوداء.. احمرّت وجنتاها ككل مرة تراني فيها، واتسعت ابتسامتي ككل مرة تخجل فيها هكذا عند مرآي.. ولمّا انتبهتُ لما ترتديه، طرق قلبي ولا أدري السبب، ولكني أعلم الآن أننا نرتدي نفس اللون.. ابتسمتُ لها وقلتُ بمكر:
- جميلٌ هو اللون الأسود!
اتسعت عيناها واحمرّ وجهها بالكامل كأنه رمانة كاملة النضج.. وركضت على السلم.. قهقهتُ باستمتاع، ثم نزلتُ

بهدوء على السلّم.. وعندما نزلتُ وجدتُها تنظر إليّ بغيظ وغضب، بديا عليها بشكل ظريف.. صاح زوج أختي، الذي كان عمها الأصغر، قائلاً بابتسامة خبيثة:
- يبدو أنكما ترتديان نفس اللون.. يا للمصادفة الجميلة، أليس كذلك يا **"رامي"؟!**
لم أعلم إلامَ يُلمّح، ولكني نظرتُ ناحية **"ريناد"** بابتسامة هادئة.. رأيتها تشهق بخفة، وتحمرّ وجنتاها عندما لاحظت الأمر الآن..
قهقهنا جميعاً، ثم خرجتُ للخارج حتى لا تُحرج أكثر من ذلك.. أشعر أنني سعيدٌ بشكل لا يُوصف، ولا أدري السبب.. ولكن يبدو أنني لن أندم بمكوثي هذا الشهر هنا..

أول شيء اتجهنا للمطعم، لنتناول وجبة الغداء.. أنهينا الطعام بعد مُزاح وحديث وضحك، وطبعاً كالعادة كانت **"ريناد"** تنظر إلينا بهدوء وتكتفي بابتسامة صغيرة..
اقترحتُ عليهم أن نذهب لمول ( ).. أردتُ أن تكون هناك فرصة لأتحدث قليلاً مع تلك الصغيرة.. لا أعلم بالضبط فيمَ سنتحدث، ولكن أي شيء..
وصلنا بعد ربع ساعة تقريباً، وما إن دخلنا حتى ناديتُ عليها:

- **"ريناد"!** هل يمكننا أن نسير سوياً بمفردنا؟
نظرت لي بصدمة، وكذا فعل الجميع.. أما زوج أختي فابتسم بسخرية..
اقترب مني **"مصطفى"** وقال بسخرية:
- يبدو أن مكوثكَ في أوروبا قد أثّر عليك.
ثم نادى على **"ريناد"**، وأمسك يدها ثم جذبني من ذراعي برفق إلى أن وصلنا لمكان هادئ نسبياً.. كان وجهها الآن محمرّ بالكامل من شدة الخجل.. كتّف أخوها ذراعيه أمام صدره وقال:
- إذاً ماذا كنتَ تريد منها؟ ها نحن نسمعك.
لأول مرة أشعر بهذا الكم من الإحراج، ماذا بِهم؟!
مسحتُ على رأسي من الخلف قائلاً:
- لا شيء بالتحديد.. فقط أردتُ أن نتحدث أنا وهي معاً.
ذهبت **"ريناد"** إليهم، وظل ينظر لي **"مصطفى"** بصمت..
ثم قال:
- **"رامي"**، اسمع.. أنتَ هنا لستَ في أوروبا، إن كنتَ تفعل ذلك في فرنسا بحرية.. مع أن هذا لا يجوز.. فالتعامل هنا، وخصوصاً مع **"ريناد"** لأنها أجنبية عنك، يكون بضوابط شرعية..

لا مُصافحة باليد، لا مُزاح معها، لا حديث على انفراد..
وطبعاً لا إطالة في النظر.. وهذه الأمور ليست مع أختي فحسب، بل مع أي فتاة ليست مَحرماً لك.
هززتُ رأسي بغير اقتناع، ثم قلتُ له مُغيّراً الموضوع:
- اا حسناً اذهبوا أنتم الآن، وأنا سألحق بكم.. لديّ مكالمة هامة.
ولم أكذب، فقد أردتُ مُحادثة **"شيري"**..
- ألو، **"شيري"** كيف حالكِ.. ما رأيكِ أن تُقابليني في مول ( )..؟ إذاً سأنتظركِ.
حادثتُها بهدوء أقرب للبرود، وأظنها تعجبت من طريقتي.. ولكن ذلك أفضل..
التحقتُ بهم مرة أخرى، وبعد نصف ساعة اعتذرتُ منهم لأن **"شيري"** اتصلت عليّ، وسأقابلها..

صراحة، لم تكن أول مرة أُقابلها بها.. قابلتُها مرتين أو ثلاثاً من قبل.. كانت على العكس تماماً من **"ريناد"**، بل **"ريناد"** بريئة جداً.. ولا يصحُّ لي أن أُشبهها ب**"شيري"** أصلاً..
مدّت يدها لتُصافحني، بصراحة كنتُ أشعر برغبة قوية في تجاهلها.. تجاهلتُها فعلاً، ثم بدأتُ حديثي بهدوء:

- **"شيري"**.. أنا آسف ولكننا يجب أن ننفصل.. بالتأكيد ستجدين شخصاً أفضل مني.
شقهت بصدمة، واغرورقت عيناها بالدموع.. تأففتُ داخلي بضجر.. بعد دقيقتين من البكاء والنشيج، سألتْ بتقطع:
- ل لماذا؟ أأ أعني اا اعتقدتُ أنكَ مُختلفٌ عن باقي من عرفتْ.
اه، الكلام المعتاد.. ولكن مهلاً، ماذا؟! سألتُها بسخرية لاذعة:
- ما شاء الله! يبدو أنني لم أكن الوحيد.
كادت أن تُبرر لي موقفها، ولكني سمعتُ زوج أختي ينادي.. التفتُّ، ونظرت **"شيري"** ورائي بتلقائية..

تباً تباً تباً! لم يكن يُهمني زوج أختي، بقدر ما أهمتني **"رينـاد"** التي معه..
نظرتُ في عيني **"رينـاد"** بتوسل، ألّا تفهمني بشكل خاطئ! ولكن كيف؟! وقد رأتني وأنا أقف مع فتاة غريبة، بل والأحرى كانت الفتاة تبكي.. فماذا ستفهم إن لم يكن خطأً؟!
ظللتُ أسبُّ نفسي بندم، لم أندم على شيء بقدر ما ندمتُ على نظرة خيبة الأمل التي رأيتُها بعينيها.. وجدتُها تُسرع

الخُطى عائدةً لباقي العائلة.. أما زوج أختي فظلّ ينظر لي بصدمة وغضب..
كدتُ ألحق ب**"ريناد"**، ولكن ذراعه التي جذبتني بعنف أوقفتني.. ابتسم بتهكم وقال:
- انساها.
سألتُه بارتباك:
- مَن؟! من تقصد.
أجابني بحدة:
- أيها الأحمق! بالطبع أقصد **"ريناد"**.. لقد فقدتَ حُبّها وتقديرها لكَ تماماً.. أنتَ الآن سقطتَ من نظرها!
انقبض قلبي بعنف حين قال "فقدتَ حُبّها".. سألتُه بتلعثم:
- وهه وهل كانت تُحبني؟
قال بسخرية لاذعة:
- إذاً أنتَ أعمى لكي لا تشعر بإعجابها لكَ.. الذي تحاول هي إخفاءه.. وأجهل من دابة إذ لا تعلم أنتَ نفسك أنكَ تُحبّها بشدة.
قلتُ بحيرة:
- وكيف علمتَ أنتَ؟!
قلب عينيه وقال:

- نظراتكَ تفضحكَ! سؤالكَ عنها دون سِواها، في كل مرة تُحدثنا بها يفضحكَ! ابتسامتكَ التي تتسع عندما تراها أو عندما تبتسم هي.. بربكَ أوليس ذلك دليلاً على مشاعركَ.
وقبل أن أردّ عليه، تنهد وقال:
- كنتُ سأحادثكَ اليوم بشأنها، وأنه يجب عليكَ أن تخطبها.. لأنه لا يُرى للمتحابين سوى النكاح.. ولكني لمّا رأيتكَ خيّبتَ أملي فيك!
قلتُ له بسرعة:
- سأُحادثها، وأعتذر منها.. وستقبل، فهي **"ريناد"!**
رأيته يبتسم بتهكم، ثم قال بحدة:
- لم ترَ نظراتها المصدومة، لمّا رأتكَ مع تلكَ الفتاة.. وابنة أخي ليست ساذجة لكي لا تعرف من تكون بالنسبة لكَ.
سيبقى هذا الذي رأيناه بيننا نحن الثلاثة.. فقط لا تتعامل مع **"ريناد"** من الآن وصاعداً، يكفى إلى هنا! ربّما لم يكن بينكما شيءٌ رسمي، ولكنكَ خيّبتَ ظنها.. فقدتْ ثقتها بكَ! ولا أظن ثقتها بكَ ستعود بسرعة..
أنا أحبكَ يا **"رامي"**، لذا من الأفضل لكَ ألا تتعامل معها، وأن تتجنبها.. وكما قلتُ لكَ، لن يخرج هذا الموضوع بيننا نحن الثلاثة بإذن الله.

كانت كلماته كالرصاص وهي تخترق قلبي بقسوة.. كلماته أفاقتني من غفلتي، وكم أشكره على ذلك..
ارتجفتْ شفتاي وأنا أُخبره:
- صدّقني، لقد أنهيتُ الموضوع مع هذه الفتاة اليوم.. حتى قبل أن تأتيا.. أتعلم أيضاً، لقد كنتُ مُقرراً أن أخطب **"ريناد"** قبل أن أُسافر مرة أخرى.
رأيتُه يزفر الهواء بتعب، وقبل أن يتحدث رأينا **"مصطفى"** يتقدم ناحيتنا بقلق..
- ما بكما؟ لمَ تأخرتما كل هذا الوقت.. أخبرتنا **"ريناد"** أنكما تتحدثان في أمر ما.
نظرتُ بعيداً بحزن، فأجاب **"محمد"** بهدوء:
- لا تقلق.. فعلاً كنا نتحدث بأمر هام.. إذاً هيا؟ أنا وأنتَ لدينا عمل غداً، وكذا والد **"رامي"**.
سبقنا **"مصطفى"** بتردد، فهمس لي **"محمد"**:
- سنُكمل الحديث عندما نعود.. فلديّ شيٌء هام جداً أودّ أن أُخبركَ به.
ثم ربّت على كتفي، وسِرتُ بجانبه مهموم.. تذكرتُ تلك الملعونة، التي لولا لِقائي بها لما حدث ما حدث.. يبدو أنها رحلت! تباً لها وتباً لمعرفتي بها!

وصلنا بعد نصف ساعة.. ويا للقدر! عُدنا بغير الوجه، ولا الروح التي ذهبنا بها.. طبعاً باستثناء أمي وخالتي وأبي، الذين لم يعلموا شيئاً أصلاً، وبالطبع فقد لاحظوا شرودنا وسألونا.. كنا نبتسم بوجوههم بزيف ونُطمئنهم..

ذهبتُ لغرفتي، وحاولتُ قدر المستطاع أن أتحاشى النظر إلى **"ريناد"**.. بعد ربع ساعة وجدتُ الباب يُطرق..

- تفضل!
فُتح الباب، وكان **"محمد"** كما توقعتُ.. تنهدتُ ثم اغتصبتُ ابتسامة وأفسحتُ له ليجلس بجواري..
بدأ حديثه بحرج:
- أعتذر عن تأخري، ولكن أختكَ سألتني إلى أين سأذهب.. فأخبرتُها أني سأتحدثُ معكَ قليلاً.
ثم ابتلع ريقه وأكمل:
- قلتَ لي أنكَ كنتَ تنوي تركَ تلك الفتاة.. لماذا؟
اهتزّ صوتي، وأنا أُجيبه:
- كنتُ قد مللتُ منها.. أقسم لكَ يا **"محمد"** كنتُ مُقرراً أن أتركها حتى قبل أن آتي إلى مصر.. وبعد مكوثي هنا ورؤيتي ل**"ريناد"** وتعاملها معي، كنتُ قد نويت أن

أخطبها.. ربما لم أكن متأكداً من طبيعة مشاعري تجاهها، ولكنها ابنة خالتي على كل حال.
زفر الهواء، وكأنه يُخرج غضبه به.. ثم قال بعصبية:
- تريد أن تلهو كيفما تشاء، وعندما تريد خِطبة فتاة تختار ابنة خالتك البريئة النقية؟! حقاً لم أعد أفهمكَ يا **"رامي"**، هل مكوثكَ في أوروبا هو ما أثّر بعقلك.. ولكن لا، أنتَ بطبعكَ مُستهتر ومتهور.. ليس ذنب والدتكَ المسكينة، ولا حتى ذنب فرنسا.. لقد كنتَ مُهيئاً تماماً!
كلامه كان قاسٍ جداً، فنزلت دموعٌ مني وأنا أقول:
- **"محمد"** أرجوكَ! لا تُوبخني، أنتَ بالنسبة لي كأخي الكبير.. فقط انصحني ودلّني على الصواب.
لانت ملامحه، فربّت على كتفي وتنهد قائلاً:
- يا إلهي! يبدو أن والدتكَ قد دللتكَ بطريقة زائدة.. **"رامي"** يا بني.. أنا لا أوبخكَ، فقط أخبركَ بالحقيقة.
سألتُه بلهفة:
- و**"ريناد"؟!**
زفر مرة أخرى، وقال:
- و**"ريناد"**، ستبقى بعيداً عنها، وكأنكَ لا تعرفها.. حتى يتوب الله عليكَ ويُصلح الله حالكَ.. وتسامحكَ هي!
قلتُ له بسرعة:

- سأتوب، وسأتحدث مع **"ريناد"** وتسامحني.. سأُصبح شخصاً آخر.. فقط أخبرها أن **"رامي"** سيتوب من أجلها، وسأكفّ عن أفعال المراهقين تلك.
هز رأسه بيأس، وأجابني:
- ألم أقل إنكَ، وإن كنتَ تقترب من الثلاثين عاماً.. إلا أنكَ تبدو كالطفل التائه، الذي لا يعلم كيف يتصرّف.. انظر يا بُني، إنكَ إن تُبتَ إلى الله ﷻ، فلأنكَ أنتَ تريد ذلك.. وليس من أجل شخص، حتى وإن كنتَ تُحبّه.. أتفهم يا **"رامي"؟**
أومأتُ برأسي بالإيجاب، ولكن بداخلي كنتُ غير مُقتنع..
سأتوب إلى الله ﷻ، وسأتغير.. وسيرَون ذلك، وسأُغيّر نظرة **"ريناد"** تجاهي..

*****

استيقظتُ على الساعة التاسعة والنصف.. غسلتُ وجهي وتوضأتُ، ثم صليتُ الصُبح.. نزلتُ لأقابل **"ريناد"** حتى أُخبرها بقراري..
لم تكن موجودة، ربّما في الحديقة.. أيضاً لم تكن موجودة..
تأففتُ، أيضاً لم يكن في القصر سوى أمي وخالتي وجدتي..
سلمتُ عليهن، ثم همستُ لأمي:

- أمي، ألم تري **"ريناد"؟!**
أجابتني بلا اكتراث:
- ذهبتْ لجامعتها.
هُنا عُدتُ بذاكرتي للخلف، وأنا أبتسم..

كنا نُشاهد التلفاز، فجأة وجدتُها تصيح بحماس:
- **"رامي"**، أتعلم بأي كلية أريد أن ألتحق؟
ضحكتُ بخفة على حماسها، وأنا أهز رأسي بالنفي..
فصاحت مرة أخرى:
- أريد أن أكون مثلكَ.. لذا سأدخل كلية الألسن، قسم الفرنسية.
ابتسمتُ لها بتفاجؤ، حسناً لم أتوقع ذلك مُطلقاً.. مسحتُ على شعرها بلُطف وقلتُ:
- وسأكون فخوراً بكِ حدّ السماء.

أفقتُ على بكاء أمي وخالتي فجأة.. صحتُ بهلع:
- ماذا حدث؟
أجابتني خالتي وهي تتمخط في المنديل، وتنظرُ تجاه التلفاز:
- لقد ماتت الأم وهي تضع وليدها.. يا للمسكينة!
تنهدتُ بتعب.. يا للنساء!

قمتُ من مكاني بتثاقل ذاهباً إلى غرفتي.. رائع! مثلي الآن مثل النساء وأنا جالسٌ بالمنزل بلا عمل!

قضيتُ أسوأ ساعاتٍ بحياتي.. بين تصفّح للفيسبوك، أو التحديق بالسقف وتخيّل سيناريوهات لحواري مع **"ريناد"** هانم!
لعنتُ حظي، وتهوري.. أكان يجب أن أُحادث **"شيري"**، بل وأظل معها ثلاث سنوات كاملات! تباً لي، وتباً تباً لها!

لم أعلم كم من الوقت نِمت، قبل أن تُوقظني أمي بهدوء لأنزل لتناول الغداء.. نهضتُ بتثاقل، ثم نظرتُ للساعة.. اه لقد فاتتني صلاة الظهر..
توضأتُ وصليتُها قبل أن أنزل.. كان الجميع موجودين على المائدة، باستثناء **"مصطفى"**..
إن عمله كطبيب جراحة، يجعله لا يأكل مع العائلة في كثير من الأحيان..

جلستُ بمكاني مُقابلاً ل**"ريناد"**.. ولم تُكلف نفسها عناء النظر خارج طبقها، آلمني قلبي كثيراً وأنا أراها تتجاهلني..

في السابق كانت تتجنبني بخجل، والآن..! اه، هل مكتوبٌ عليّ أن أفقدكِ بعد أن علمتُ حقيقة مشاعري تجاهكِ؟!
فجأة وأنا آكل، سمعتُها تُخبر والدتها:
- أمي! بعد الغداء سأذهب للمكتبة لشراء بعض الكتب.
همهمت لها خالتي، ثم قالت لها بهدوء:
- إذن فليُوصلكِ **"رامي"**.
رقص قلبي فرحاً، بهذه الفرصة الذهبية.. سأُخبرها بقراري، وما بداخلي.. ولكنها قاطعت أفكاري قائلة بحسم:
- لا! سأذهب بمفردي.. أو على الأقل فليوصلني عمي **"محمد"**.
تحدثتُ بهدوء:
- لا بأس يا خالتي، سأوصلها أنا.. لقد ذهب **"محمد"** إلى العمل اليوم، وبالتأكيد هو مُتعب الآن.
نظرتُ ل**"ريناد"** فوجدتُها تنظر لي والغضب بادٍ على ملامحها.. ابتسمتُ بحزن، يا للروعة! بعد أن كانت ترتبك بحضوري، وتحمرّ وجنتاها عندما أنظر لها.. الآن تغيرت نبرة صوتها، فأصبحت واثقة بعد أن كانت خجولة..
وأصبحت تنظر لي بغضب أو بحدة، بعد أن..
سمعتُها تمتم:
- الحمد لله!

ثم رأيتُها تقوم من مكانها، فنظرتُ تلقائياً تجاه **"محمد"** بأسى.. فوجدتُه يُبادلني بصمت..
قمتُ أنا الآخر، وأنا أُخبرهم أنني سأذهب لتوصيل **"ريناد"**.. أخذتُ من أبي مفاتيح السيارة، ثم ركضتُ تجاه الخارج.. وقبل أن أخرج سمعتُ أمي تسأل بحيرة:
- هل تشاجرا، ولأول مرة؟!
لم أسمع إجابة، لأنني كنتُ قد خرجتُ بالفعل..

رأيتُها تقف بجانب السيارة وتنظر للا شيء.. حمحمتُ لأجذب انتباهها، ثم بدأتُ حديثي بحرج:
- لم أقصد أن أُعاند معكِ.. فقط كنتُ أريد أن أُخبركِ أمراً مُهماً.
نظرتْ لي بصمت، ونفاد صبر.. تنهدتُ ثم أكملتُ:
- كنتُ أُريد أن أُخبركِ بقراري.. اا لقد قررتُ أنني بإذن الله سأتوب وسأتغيّر.
عقدت حاجبيها، وقالت بعدم اكتراث:
- مُبارك! إذاً ما شأني أنا؟ هذا قرارك أنتَ على ما أظن؟!
شعرتُ بألمٍ حارق في قلبي، فقاومتُه والغُصة التي بحلقي، قائلاً بتلعثم:
- أردتُ إخبارك لل لكي تسامحيني!

تنهدتْ، ثم قالت بهدوء:
- لستُ خطيبتكَ لأسامحكَ أو لا.. أنا ابنة خالتكَ، وفقط.. إن كنتَ ما زلتَ تذكر طبعاً.. والآن هل يُمكننا أن نذهب؟
أومأتُ لها باستسلام، ثم فتحتُ باب السيارة وجلستُ في مقعد السائق..

وصلنا بعد ربع ساعة.. كانت نفس المكتبة التي كنتُ آخذها إليها عندما كانت صغيرة..
قالت لي وهي تنزل، ولم تنظر ناحيتي:
- ربّما أتأخر قليلاً.. لا داعي لانتظاري.
ابتسمتُ بحزن، ثم قلتُ لها:
- لا بأس.. أصلاً لا شيء لأعود من أجله للمنزل.
أغلقت الباب وهي تتمتم "عنيد!"..
ابتسمتُ مرة أخرى، ثم قدتُ السيارة لأضعها بمكانها المُخصص..

نزلتُ من السيارة مُتجهاً للمكتبة، قلتُ لنفسي "ربما يُعجبني كتاب ما".. دخلتُ فوجدتُها تُمسك برواية يبدو من ملامح وجه **"رينـاد"**، أنها أعجبتها جداً.. وقفتُ بجوارها لأقرأ العنوان..

- إي.. **"إيكادولي"!**
نظرت لي بصمت، ثم رفعت وجهها ناحية الأرفف.. سألتُها بتعجب، مِن اسم هذا الكتاب:
- ما معنى **إيكادولي؟!**
احمرّت وجنتيها، ثم تلعثمت وهي تقول:
- إإ إنها كل كلمة نوبية.
سألتُها مُصرّاً:
- وما معناها؟
احمرّ وجهها بالكامل، ثم ذهبت لرفّ آخر.. تعجبتُ منها، ألم تكن تتحدث معي بجمود.. ما بها الآن؟!
ذهبتُ لأمينة المكتبة ثم سألتُها:
- من فضلكِ، هناك رواية اسمها **"إيكادولي"**.. اا ما معنى الكلمة؟
رأيتُها تنظر لي وقد احمرّت وجنتيها ثم تلعثمت قائلة:
- هي رواية ضمن سلسلة مملكة البلاغة، للكاتبة المتميزة **"د. حنان لاشين"**.
قلتُ بنفاد صبر:
- وأنا لم أسأل إلا عن معناها.
نظرتْ للكتاب بين يديها وأجابتني بخفوت:
- **"إيكادولي"** كلمة نوبية.. معناها، أأ أحبك.

هززتُ رأسي بفهم، ثم تركتُها وقد اتسعت ابتسامتي.. إذاً هكذا؟ وأنا الذي تعجبتُ من رد فعل **"ريناد"!**
ظللتُ واقفاً بجانب مدخل المكتبة لساعة إلا ربع تقريباً، قبل أن أجدها تأتي وهي تحمل كتباً كثيرة بين يديها الرقيقتين.. سارعتُ لآخذ منها الكتب، ولكنها أبعدتهم عني.. تندهتُ بيأس منها.. ثم وقفتُ بجانبها مُنتظراً الحساب..

- الحساب خمسمائة جنيه.
كادت **"ريناد"** تفتح حقيبتها، ولكني سارعتُ وأخرجتُ بطاقتي الائتمانية لأدفع الحساب.. إن لم تكن خطيبتي بعد، فهي ابنة خالتي!
نظرت لي بصمت ولم تتحدث.. وبعد أن خرجنا وحملتُ عنها حقيبة الكتب، ثم صعدنا للسيارة.. رأيتُها تضع النقود على الكرسي بجانبي وتقول بإصرار:
- لم أُرد أن أُحرجكَ أمام الفتاة بالداخل.. ولكني لا أُحب أن أكون مدينة لأحد!
نظرتُ لها من المرآة الداخلية، وابتسمتُ قائلاً:
- ومن قال أنني أنتظر منكِ رداً.. ومن قال أن هذا دين أصلاً.. لنقل إنها هدية اعتذار مني.
رفعت حاجبيها، وقالت بسخرية:

- هدية اعتذار! أولاً، شكراً.. لا أريد هدايا منكَ.. ثانياً والأهم، هل فعلتَ شيئاً لي لتعتذر؟!
لم يؤلم قلبي سوى قولِها "لا أريد هدايا منك".. ولكني أجبتُها بصراحة:
- اعتذارٌ عمّا حدث البارحة.. ربّما تفسير أيض..
قاطعتني بصرامة، لم أعدها فيها:
- ومن قال لكَ أنني أريد اعتذاراً أو تبريراً حتى.. إنه أمرٌ بينكَ وبين الله ﷻ.. هو وحده ﷻ من تتوب إليه وتستغفره.. أما أنا..
قاطعتُها بلهفة:
- أما أنتِ، فربّما أخطبكِ قبل سفري.
احمرّت وجنتاها وقالت بخفوت وهي تُشيح بوجهها ناحية الخارج:
- لا أعتقد ذلك.
ثم خيّم الصمتُ علينا، بعد أن تهشم قلبي للمرة التي لا أدري كم، من ردود أفعالها..
عُدنا للمنزل، ثم صعدتُ لغرفتي دون كلمة أخرى.. دقائق حتى سمعتُ طرق الباب، ثم فُتح.. اغتصبتُ ابتسامة إذ رأيتُ أمي..
جلست أمامي على السرير وقالت:

- **"رامي"**، ما بكَ يا حبيبي.. عندما أتيتَ كنتَ في قمة مرحكَ وسعادتكَ.. ولكن منذ البارحة وأنا أراكَ أنتَ و**"محمد"** و**"ريناد"**، وملامح وجوهكم باهتة وحزينة.. ما بكم؟ هل حدث أمرٌ ما؟ حتى أختكَ ظنت أن مشكلة تمرون بها.. أخبرني يا ولدي فأنا أمكَ.
هُنا لم أستطع الصمود أكثر، فحكيتُ لها كل شيء..
استمعت لي بإنصات، ولم تُقاطعني لحظة واحدة..

وبعد أن انتهيتُ سألتُها بنشيج:
- أعلم أنني ارتكبتُ خطئاً.. ولكني اعتذرتُ لها أكثر من مرة، وأخبرتُها أني سأتغير.. لمَ إذاً لا تهتم بي، أو تصدقني؟!
تنهدت أمي، وأجابتني:
- **"رامي"**، إن الثقة إن هُدم بناؤها من الصعب جداً أن يعود كما كان.. وإن عاد فسيكون ضعيفاً قابلاً للهدم مرة أخرى، وللأبد في أي لحظة.. ثم إنها تعلم جيداً أنه لم يكن هناك شيء رسمي بينكما، وحتى وإن كانت خطيبتكَ بالفعل ورأت هذا المنظر أمامها.. فحتماً ستمقتكَ ولن تشعر بالأمان نحوكَ.
أخبرتُ أمي:
- ولكني يا أمي تُبتُ إلى الله بالفعل.. وكلما أخبرتُها بذلكَ تجاهلتني.

ثم صمتُّ وبكيتُ قائلاً بتقطع:
- هل بعد أن تأكدتُ من أنني أحبّها فعلاً، ستتركني؟ هل الفتاة النقية التي عرفتُها لن ترضى بي مُطلقاً.. أجيبيني يا أمي بالله عليكِ قبل أن أُجن!
أمسكتني من ذراعي قائلة بقوة:
- إذاً أثبِت لها هذا.. دعها ترى ذلك بنفسها، دعها تتحقق من صدق ما قررته أنت.. هل تعلم لماذا تتجاهلكَ؟ لأنها لا تريد أن تعلّق قبلها بأملٍ واهٍ.

شعرتُ ببرودة وارتياح بصدري، إثر كلمات والدتي..
احتضنتها وقبّلتُ يديها.. وقبل أن ترحل قالت:
- وتذكّر.. لقد تُبتَ إلى الله ﷻ، لأنكَ أنتَ أردتَ ذلك.. لم تَتُبْ لأجل **"ريناد"** أو غيرها.
عقدتُ حاجبيّ وسألتُها:
- وما المانع إن فعلتُ ذلك من أجل **"ريناد"؟**
تنهدتْ وهي تجيبني:
- أولاً سيكون رياءً.. ثانياً، ولنفترض أنه غير مقدّر لكَ أن تتزوج **"ريناد"**، هل ستعود لذنوبكَ وأفعالكَ السيئة؟ لمجرد أن السبب في توبتك لم يعد معكَ! التوبة يا بني، يجب أن

تكون خالصةً لله وحده.. ولا يهمّ من فرح بتوبتي، ومن لم يفرح.. المهم أن الله ﷻ يفرح فرحاً عظيماً، بتوبة عبده.
ثم تركتني أفكّر في كلامها، وقد استقرّ في أعماق قلبي..

*****

بعد هذا اليوم، بدأتُ بخطوات عملية وجادة في طريق التغيير.. كنتُ مُنشغلاً بنفسي وبما أفعله، لذا لم أكن أفكر كثيراً كيف كانت تراني **"ريناد"!**

حتى كان قبل سفري بثلاثة أيام.. كنتُ جالساً في الحديقة، أقرأ كتاباً استعرتُه من **"ريناد"** وإذ بي أجد **"محمد"** يجلس أمامي.. ابتسم قائلاً:
- أرى أنكَ أصبحتَ تقرأ، وأعتقد أنني سأنسب الفضل لأحدهم!
أغلقتُ الكتاب ووضعتُه على الطاولة، ثم قلتُ باسماً:
- الفضل يعود إليها، بعد الله طبعاً.. في كل شيء يخصّني.
قهقه بشدة، قائلاً:
- أيها الوغد! أرى أنكَ أصبحتَ عاشقاً ولهاناً.. إذاً، متى ستطلب يدها يا **"مجنون ليلى"؟**

تنهدتُ، ونظرتُ للأرجوحة قائلاً:
- لا أعرف بعد.. أخشى أن ترفضني.. وأخشى أكثر أنها لا تزال خائفة وغير واثقة مني.
صمتَ قليلاً، ثم أجابني:
- استعِن بالله، ثم اذهب قبل أن تسافر وأخبر **"مصطفى"**.

*****

وها قد أتى يوم السفر، ولم أُخبر **"مصطفى"** أو خالتي بعد.. أو حتى أمي أو أبي بشأن **"ريناد"**.. زفرتُ الهواء، وأنا واقفٌ أمام المرآة أتجهّز للعودة مرة أخرى لفرنسا..

لم أكن مُتردداً في شيء طوال حياتي، باستثناء كل شيء يخص **"ريناد"**.. لا، لم أكن ضعيفاً أمامها.. فقط هي الوحيدة التي تجعلني أخشى الرفض..
نظرتُ لحقيبة السفر، وقبل أن أحملها، خرجتُ راكضاً..
ذهبتُ لأبي في غرفته، ثم قبّلت يده ورأسه ثم بدأتُ:
- أبي، لقد قررتُ أن أطلب يد **"ريناد"!**
تهللت أساريره ثم قال بسعادة واضحة:

- إذاً فمُباركٌ لكَ مُقدماً.. ولكن يا بُني، لمَ تأخرتَ كل هذا الوقت.. هل هناك أحد يخطب فتاة قبل أن يُسافر بأربع ساعات؟!

ابتلعتُ ريقي قائلاً بحرج:

- إن الموضوع سيطول شرحُه.. ولكن لنقل أنني أردتُ أن أُعطيها وقتاً كافياً جداً لتفكّر.

ابتسم أبي بمكر وقال:

- وهل هناك تفكير في هذا الموضوع بالذات.. بالطبع ستوافق!

ابتسمتُ بحرج، وقد طرق قلبي.. لم أدرِ أهي نبضات حبّ، أم قلق؟!

عُدتُ إلى غرفتي لأحمل الحقيبة، وأنزل..

طوال حياتي لم أُحبّ مُطلقاً إطالة لحظات الوداع، لا والله، لستُ قاسِ القلب.. ولكنها تحفر داخل قلبي حُزناً عميقاً، لا يزول إلا بعد ساعاتٍ من العمل المُرهق.. ثم يعود ثانية ليُلازمني إلى أن أنام أو أُغرق في العمل..

لم أتوقع أن **"ريناد"** ستنزل لتوديعي، حسناً هذا جيد.. ولكني ما إن نظرتُ لعينيها السوداوتين، حتى وجدتُها لامعة تتلألأ بدموع تُكابر هي حتى لا تفضحها.. آلمني قلبي بشدة،

وضعتُ يدي على قلبي علَّ الألم يهدأ قليلاً.. رأيتُها تُشيح وجهها، أما **"محمد"** فسألني بقلق:

- **"رامي"؟!** هل هناك خطبٌ ما؟

ولم تدعني أمي أُجيبه، حتى سألتْ وهي تمسح دموعها:

- بُني، ما بكَ؟

قلتُ وأنا أنظر ناحية **"ريناد"** ثم أُشيح وجهي:

- لا شيء ذا بال، فقط آلمني قلبي قليلاً.

شهقتْ أمي وقالتْ بتلعثم:

- هل نذهب للمستشفى، أم.. لا لا، **"مصطفى"** أرجوك افحصه.

رأيتُ **"ريناد"** تمسح دمعة نزلتْ من عينيها، وما كدتُ أُجيبها حتى قال **"محمد"** بسرعة وقد فهم الأمر:

- لا عليكِ يا خالتي.. فقط هو تذكّر أمراً مُحزناً.. أليس كذلك يا **"رامي"؟**

أومأتُ برأسي، ثم رأيتُ **"ريناد"** تتجه نحو الأعلى فقلتُ بسرعة:

- اا **"ريناد"** من فضلكِ انتظري.. بعد إذن خالتي و**"مصطفى"** طبعاً.. وبعد موافقة **"ريناد"**، أريد أن أخطبها.

احمرّت وجنتاها، أما خالتي وأمي وأختي.. فأطلقتا الزغاريد.. نظرتُ ناحية **"محمد"** فوجدتُه يبتسم لي بسعادة.. وضع **"مصطفى"** يده على كتفي وقال بابتسامة:

- وأنا لن أجد أفضل منكَ زوجاً لأختي.

ثم نظر لها وأكمل:

- وبالأخير، فالأمر يعود لها وحدها.

قلتُ لها بسرعة:

- معكِ كل الوقت لتفكري.. منذ هذه اللحظة، وحتى أعود بإذن الله من السفر.

ثم قلتُ ل**"محمد"** وأنا أحمل الحقيبة:

- هيا بنا يا صديقي.

*****

ركبنا السيارة وانطلقنا، فوجدتُ **"محمد"** يتنهد قائلاً:

- متى ستستقرّ هنا؟ أم أنكَ سعيدٌ هناك؟!

أجبتُه بابتسامة:

- أنتَ تعلم الأوضاع هنا.. ثم إنني واجدٌ ذاتي هناك، والمُرتّب جيد جداً.

ضحك بسخرية ثم قال:

- واجدٌ ذاتكَ؟! هذه أوهام تُوهم بها نفسكَ.. ومن قال أنكَ لن تجد ذاتكَ هنا؟ أنتَ الذي لم تحاول.. ثم أخبرني، هل إذا وافقت **"ريناد"** على الزواج بك ستحملها معكَ أينما ذهبتَ؟ أم ستتركها هنا كالمُعلّقة؟! أجبني أنتَ!

تنهدتُ قائلاً:

- ولنفترض أني وجدتُ عملاً جيداً هنا! وماذا عن المرتب.. هل سأجد مثله هنا أيضاً؟!

نظر لي لثوان، ثم أعاد بصره إلى الطريق وأجابني:

- هناك العمل الحُرّ.. وقد أخبرناك بهذا، واقترحنا عليكَ أن نُقرضكَ مالاً، ثم..

قاطعتُه بحسم:

- وأنا قلتُ لا! على الأقل إن اشتغلتُ بمشروعي الخاص، سيكون من مالي الذي تعبتُ فيه.

صاح بي:

- وهل ستظل مُنتظراً أن تجمع المال المطلوب، إلى أن تشيخ؟! أفِق يا **"رامي"**.. إن والدَيك بحاجة إليك، لم أقل لكَ فلتُصبح عاطلاً.. فقط أخبرتكَ أن بإمكانكَ فتح مشروعك الذي تريد، وسنعطيكَ المال اللازم.. وبعد أن يرزقكَ الله المال الوفير، ستُعيده لنا كما تريد.

ثم زفر بإرهاق وقال:

- أنا آسف لأني صرختُ بكَ.. ولكني أعتبركَ كأخي الأصغر، وأنا ناصحٌ إليك!

*****

"ريناد"

زفرتُ الهواء، ما إن غادر **"رامي"**.. يا إلهي! وأنا التي قررتُ أن أُبعده عن تفكيري، ثم ها أنا ذا.. ما إن صعدتُ غرفتي، وأنا في حالة بكاءٍ صامت.. والحقُّ يُقال أنه قد تغيّر كثيراً في هذين الأسبوعين.. ولكن موضوع مُحادثته للفتيات! لا أعلم بعد.. حتى عندما طلب يدي، ما زلتُ مُترددة بشكل لا يُصدق..
ربّما ما زالت بقايا مشاعر له في قلبي، ولكن من الحكمة أن أتريث كثيراً وأفكّر أكثر قبل أن أُقدم على قرار كهذا..
حتى عندما أخبرني عمي **"محمد"** أنه بالفعل تاب إلى الله جل جلاله، وأنه يُتابعه بنفسه ويُسانده.. لم أعلم أيضاً، فلربما كان هذا تغيّراً مؤقتاً، ثم تعود ريما لعادتها القديمة!
لا أُنكر أيضاً أنني سعيدة بتغيّره، وقد لاحظتُ جزءاً منه..
ولكن لندع الأيام تُرينا ما بجعبتها!

*****

جلستُ على السرير، ثم تداعت لي ذكريات على حين غفلة.. احمرّ وجهي عندما تذكرتُ يوم خرجنا، وغازلني.. الوقح! لا

أُنكر أن قلبي طرق بعنف، على أمل أنه يُبادلني الحبّ..
ولكن ألا يعلم أنني لم أزل بعدُ أجنبية عنه؟!
أيضاً في الصباح، وقبل أن يُغادر.. حاولتُ قدر الإمكان أن أُداري الحزن الذي بقلبي عند مغادرته، ولكنه لن يكون **"رامي"** إذا لم يفهمني.. نزلتْ دمعة مني عندما وضع يده على قلبه متألماً، فمسحتُها بسرعة خشية أن يراها..

منذ صِغرنا، وكان **"رامي"** يفهمني دائماً.. إلا في أمر وحيد، وهي مشاعري تجاهه.. لا أعلم حتى الآن كيف كان ظنه، ربّما ظنّ أنني صغيرة بالنسبة له.. أو لأنني فقدتُ والدي في سن مُبكرة فأعتبره كوالدي..؟!
ولكنه عندما طلب يدي اليوم، علمتُ أنه فهم مشاعري -ومشاعره- أخيراً.. فرحتُ كثيراً، وحمدتُ الله أكثر.. ولكن، فجأة نبّهني عقلي بأن أصبر قليلاً حتى أتأكد من صدق أنه فعلاً تغيّر، ولن يعود بإذن الله لأفعال المراهقين!

لم أستطع أن أذهب للجامعة في ذلك اليوم، فنِمتُ نوماً عميقاً..

*****

بعد فترة كبيرة، استيقظتُ ثم فتحتُ الفيسبوك أتصفّحه قليلاً.. ثم فعلتُ بعدها أشياء كثيرة.. قرأتُ قليلاً في رواية **"الجريمة والعقاب"**.. ساعدتُ أمي وخالتي بتحضير الطعام، حفظتُ وِردي من القرآن..
صعدتُ لحجرتي، حتى أُكمل الرواية.. وبعد دقائق وجدتُ الباب يُطرق، ثم دخلت أمي وأخي.. جلسا بجواري، ثم بدأت أمي الحديث قائلة بابتسامة:
- ها يا صغيرتي.. ماذا قلتِ بشأن طلب **"رامي"**؟
صمتُّ لثوان فأكمل **"مصطفي"**:
- إن لم ترغبي، فلن نُجبركِ.. هذا قراركِ وحدكِ.
قلتُ بخفوت:
- الأمر ليس في الرغبة أو عدمها.. الأمر أنني أخاف إلى حد ما، أن يكون **"رامي"** ليس الشخص المناسب.. مثلاً، ماذا لو كان يُحادث الفتيات.. أو حتى يتساهل معهن في التعامل.
تنهدت أمي وقالت:
- معكِ حق في خوفكِ، ولكني طوال الثلاثة أسابيع الفائتة.. لاحظتُ أن **"رامي"** أصبح أكثر تعقُّلاً.. أشياء كثيرة تغيرت به.. ربما لم تكن هذه مدة كافية لأحكم عليه، ولكن هذا ما شاهدتُه.. القرار لكِ، إن شئتِ أن تقبلي ثم تتحاورين معه..

إن **"رامي"** صريح.. صريح جداً إن شئتِ الدقة.. ثم حتى وإن لم يُخبركِ كل الحقيقة، فستعلمين من طيّات حديثه وأفعاله.
صمتتُّ مرة أخرى لأفكر بكلامها.. معها حق، في كل الأحوال لن أعرف ما بداخل عقله.. ويكفيني شهادتهم بشخصيته..

أجبتُهم:
- اا، حسناً.. أنا موافقة!
زغردت أمي بسعادة واحتضنتي، ثم قالت بسرعة لأخي:
- اتصل ب**"رامي"** وأخبره.. هيا ماذا تنتظر!
قهقه **"مصطفى"** قائلاً:
- ولكن يا أمي، من المفترض أن يتحدث هو.. لا أهل العروس.
خجلتُ إذ ذكر ذلك، ولكن أمي قالت بحسم:
- هاتِ الهاتف سأُخبره أنا.. هو لا يعلم متى يتصل، لأنه قال ل**"رينـاد"** سأعطيكِ كل الوقت للتفكير!

*****

"رامي"

كنتُ مُستلقياً على السرير أُحدّق بالسقف، أفكّر في قرار **"ريناد"**.. هل سترضى، أم سترفض.. هل يا ترى ما زالت لا تثق بي؟ أم.. قاطع سيل أفكاري صوت الهاتف.. نظرتُ إليه فوجدتُه **"مصطفى"**..
فتحتُ المكالمة وألقيتُ السلام.. فوجدتُ خالتي تُجيبني..
- عساه خيراً يا خالتي.. أنا بخير ولله الحمد!
أجابتني:
- فقط أردنا إخبارك بقرار **"ريناد"**.. لقد وافقت!
"لقد وافقت" جملة جعلت قلبي يطير بين السحاب! لم أتوقع من قبل أن هذه الجملة ستكون بذلك الجمال!
قلتُ بتهدج، وقلبي يخفق:
- الحمد لله! إذاً، بالنسبة للمُستلزمات وتلك الأشياء.. اتخذوا قراركم مع أمي.. وما تُقررونه سيُنفذ بإذن الله.
قالت خالتي بسخرية:
- أنتَ أيها الولد تقول هذا؟ وهل نحن غرباء؟!
أجبتُها بسرعة:
- لا يا خالتي.. ولكنها **"ريناد"**! ومن أجل عين **"ريناد"** تُكرم ألف عين!

ضحكتْ قائلة:
- ما شاء الله! وأصبحتَ شاعراً أيضاً أيها العاشق.. حسناً إذاً، إلى اللقاء.
ثم أغلقتْ المكالمة..
أنا الآن سعيد جداً، ولن أُبالغ إن قلتُ أنني أسعد مخلوق على وجه الكرة الأرضية!

تذكرتُ شيئاً، فاتصلتُ على أمي:
- السلام عليكم.. كيف حالكِ يا أمي الجميلة؟ أنا الحمد لله بخير.
ثم أخبرتُها بالخبر السعيد، وقلتُ لها أن يذهبوا لشراء خاتم الخَطبة ل**"ريناد"**، حتى لا يُفكر أحدٌ مجرد تفكير أن يتقدم لخطبتها!

*****

عندما ذهبتُ للعمل في اليوم التالي، أخبرتُ المدير بأمر استقالتي.. فقال لي أن أنتظر أسبوعاً أو اثنين حتى يجد موظفاً بديلاً عني..

في اليوم التالي، وعندما ذهبتُ للشركة التي أعملُ بها..
قابلتني **"كاثرين"** سكرتيرة المدير..
كنتُ مُقرراً أن أتجاهلها، ولكنها اتجهت نحوي وهي تقول بلغتها الفرنسية:
- مسيو **"رامي"**.. هل فعلاً ستُقدم استقالتك؟
نظرتُ للملفات بيدي، ثم أجبتُها بجدية:
- فعلاً! هذا صحيح.. سأعود لوطني، مصر.
شهقة خرجت منها قبل أن تقول بخفوت:
- هل هذا قرارك الأخير؟ سنفتقدك كثيراً.
أومأتُ لها ثم كدتُ أرحل، فقاطعتني قائلةً برجاء:
- على الأقل لنتواصل على الهاتف.
تأففتُ بضجر، ثم قلتُ بجمود:
- آسفٌ جداً.. ولكني الآن قد خطبتُ فتاة جميلة، أُحبها جداً.
ثم إن ديني يمنعني عن ذلك!
وغادرتُ وأنا أستغفر ربي..

تذكرتُ **"ريناد"** الحبيبة.. يا إلهي! كم اشتقتُ إليكِ يا صغيرتي..

خطر على ذهني خاطرٌ، فأسرعتُ للاتصال ب**"مصطفى"**..
محاولتان ولم يردّ، تأففتُ ثم هدّأتُ نفسي أنه ربما مشغولٌ الآن..
بعد خمس دقائق وجدتُه يتصل بي، ثم اعتذر قائلاً أنه كان يُصلي.. اه فارق التوقيت ذاك!
ترددتُ وأنا أقول:
- إذاً هل أنتَ بالمنزل؟ أعني هل يُمكنني محادثة **"ريناد"**؟
قهقه، ثم سمعتُه يُنادي عليها.. وبعد دقيقتين مرّتا كالدهر، سمعتُ صوتها المُحبب إليّ.. ثم وجدتُها تُلقي السلام، تبسّمتُ قائلاً:
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف حالكِ؟
أستطيع الآن تخيُّل وجنتيها المُحمرّتين وهي تُجيب، حمحمتُ قائلاً:
- أردتُ فقط أن أتحدث معكِ في بضعة أمور، ولكن أولاً سأُخبركِ أمراً.. عندما أعود بإذن الله سنعقد قرآننا.
سمعتُ صوت أخيها يصيح بي بجانبها:
- أيها الوغد! بهذه السرعة.. لن يحدث إلا على جثتي.
قلبتُ عيناي بملل على هذا الممل، ثم أجبتُه:

- سأردُّ عليكَ لاحقاً.. إذاً يا **"ريناد"**، أيضاً بإذن الله فإني قررتُ أن أعود لمصر بعد أسبوعين، وللأبد بإذن الله.. لذا أردتُ منكِ أن نفكر سوياً في مجالٍ للعمل.

صمتتُّ، لتُجيبني هي بهدوء:

- حسناً أنا معكَ.. ما هي مقترحاتك؟

قلتُ بحماس:

- بما أنني أنا وأنتِ نفس المجال.. ما رأيكِ أن نفتتح مركزاً لتعليم اللغات؟ أنتِ تُعلّمين الفتيات، وأنا أعلّم الرجال.

خِلتها قد ابتسمت، وهي تقول:

- فكرة جيدة جداً.. عندما تعود بإذن الله نبدأ في تنفيذها.

أحببتُ بشدة تلك (النون) التي وضعتها في الحديث.. أجبتُها بسعادة:

- إذاً على بركة الله.. والآن هل يمكنكِ إعطاء الهاتف لأخيكِ المُمل هذا، حتى أتحدث معه.

ثوانٍ، حتى سمعتُ صوته الساخر يقول:

- ماذا تُريد يا نبع الحنان؟

أجبتُه ببساطة:

- عندما أعود بإذن الله، سيكون أول شيء أفعله عقد قرآني على **"ريناد"**.. أريد أن أتعامل معها على راحتي.

سمعتُ تأففه، ثم أجاب أخيراً:

- حسناً، ولكن عندما تجني ثمار عملك.. سيُقام لها زفاف يليق بأميرتي.
تصنعتُ الضحك، وأجبتُه بتهكم:
- وهل ظننتني لن أُقيم لها زفافاً؟! يا لكَ من وغد! هل تعلم ماذا أيضاً؟ سأشتري شقة بعيدة عن المنزل الذي تسكنون به، أيها المُتملك!
صرخ بي بعصبية:
- إذاً قابلنِي إن لمحت طرفها حتى.. سأفسخ خِطبتها بك!
تصنعتُ المرح، وأنا أُخبره:
- هل صدقتني؟ لقد كنتُ أمزح فقط.. أنتَ تعلم كمّ أنا مُتعلق بهذا المنزل، حتى إن **"رينـاد"** ستحزن إن تركت أُرجوحتها..!

*****

بعد سنة.. جاء اليوم الذي انتظره **"رامي"** طويلاً..

كان يقف مُنتظراً إياها في الحديقة، وقد كانت الحديقة مُزينة بشكل جميل.. وكان الأجمل مكان جلوس العروسين، كان رقيقاً وليس مُبهرجاً.. بسيطاً ولكن جميلاً..
بعد محاولات طويلة منه ومن أخيها، لم تشأ أن تُقيم زفافها في قاعة.. وأخبرتْ **"رامي"** أن يذهبا في عمرة..

كان مُرتدياً بذلة سوداء، يصفف شعره البُني بشكل جميل.. وقد هذّب ذقنه التي تركها برغبة من **"ريناد"**..
كان تقريباً ينظر في ساعة يده كل دقيقتين، حتى سمع صوت **"محمد"** يقول بسخرية:
- اصبر يا بني.. ربما غيّرت رأيها فحسب!
نظر إليه بما معناه "حقاً؟!" ثم أجابه ببرود:
- إذا كان كذلك، فسأصعد وأختطفها ثم أُجبرها على الزواج.
قهقه الآخر.. ثم قال له بمرح، وهي يشير بيديه:
- **"رامي"** رجل الكهف، البربري.. عنوان مذهل لأخبار اليوم.
كاد يردّ عليه، ولكنه شاهدها وهي تخرج بفستانها الأبيض الجميل، رِفقة أخيها.. شعر أنها أجمل من أي مرة رآها فيها،

ووجد قلبه ينبض بعنف.. لم تكن تضع شيئاً على وجهها مُطلقاً، ورغم ذلك بدت في عينيه أجمل فتاة.. ويكأنه قد نسي أي فتاة رآها قبل أن يتوب، وأضحت هي فتاته الوحيدة والمُتربعة على عرش قلبه..

أمسك بيدها من أخيها، فهمس له **"مصطفى"** في أذنه:
- سأقفُ لكَ بالمرصاد، فإن أحزنتها فالويل لك**!**
نظر إليه **"رامي"**، ثم أجابه بابتسامة:
- هل توصيني على نفسي؟**!**
ثم قبّل رأسها بحنان وحُبّ، ووضع يدها داخل ذراعه وسار بها نحو الكرسي الخاص بهما..

بعد فترة كبيرة، وبعد أن خبتت حماسة الحفل الأولى وبدأت الحديقة تخلو من الأفراد، إلا من عائلتهما طبعاً.. التفّ بجسمه نحوها، ثم أمسك يديها وقبّلهما قائلاً بابتسامة:
- وتسأليننني عن أسباب السعادة، فأختصرها لكِ: "مرآكِ يجعلني مُحلّقاً بين السحاب.. ورؤية عينيكِ تكفي لاستعادة أنفاسي الضائعة.."
ثم صمت لثوانٍ، وأكمل بهمسٍ عاشق:
- **"ريناد"**، أنا إيكادولي..**!**

القصة الثانية

(يوم أن رأيتكِ..!)

كان يقود سيارته، وهو يُتمتم بآياتٍ من القرآن..

بعد عشر دقائق، كان قد وصل لوجهته فصفّ سيارته في المكان المُخصص لها، ثم نزل منها بكل وقار، مرتدياً حُلة رسمية.. عدّل من وضع نظارته ثم اتجه لمبنى دار النشر التي نشر بها روايته الأخير..
كان قد وصل مُبكراً عن موعده المحدد، لذا فقد وجد ندوة لكاتبة أخرى تُناقش كتاباً لها، فقرر أن ينتظر حتى تُنهى حديثها.. استقبله صاحب الدار بترحاب، ثم رآه يتجه ناحية الكاتبة وهمس في أذنها بشيء ما.. فرآها تنظر إليه بعينيها ال.. السوداوتين الجميلتين جداً، لا.. لقد كانت أجمل عينين رآهما في حياته.. ورغم أنه ليس معتاداً على النظر لفتاة، إلا أنه لم يتمالك نفسه وظل يُحدق بها.. أو بالأحرى بعينيها الساحرتين..
لم تكن فاتنة، ولكنها تملك عينين بريئتين جميلتين..
سمع حمحمة من جانبه، فانتبه لما كان يفعله، وسارع بالنظر لمن بجانبه ليُحادثه..

لم تكن أسئلة الجمع قد انتهت بعد، وكانت روح المُحلل النفسي التي بداخله قد استيقظت.. كان يُراقب أفعالها، كيف تتحدث.. كيف تُجيب، كيف تنظر.. وهكذا..
وقد كوّن فكرة لا بأس بها عن تلك الماكثة أمامه.. هي خجولة جداً، لا تملك من الثقة الكثير.. أي كل ما من شأنه أن يُخبره أن تلك الفتاة ذات شخصية ضعيفة، ومع ذلك فهو لم ينفر منها.. على عكس المعتاد هو شعر بشكل أو بآخر، بالمسؤولية نحوها.. ويكأنها ابنته التي يُريد تعليمها كل شيء بنفسه..

بعد خمس دقائق كانت قد انتهت.. حملت حقيبة يدها، ثم اتجهت ناحية الباب لتخرج، وما أكد له وجهة نظره.. أنها عندما اقتربت منه أسرعت الخُطى، ولم تُلقِ حتى نظرة واحدة عليه..
لم يعلم لماذا فعل ذلك، ولكنه استأذن من المدير لخمس دقائق، ثم ذهب خلفها..
نادى عليها:
- آنسة!
نظرت إليه، ثم رآها وقد ارتبكت بشدة.. تلعثمت وهي تقول:
- أأ أجل؟!

عرّفها على نفسه قائلاً:
- أنا الدكتور **"هيثم خليل"**.. أعم..
قاطعت كلامه بحماس:
- يا إلهي! أنت صاحب سلسلة ( )، ورواية ( )؟! لقد قرأتهما، وإنهما لشديدتا الرعب والجمال.
نظر إليها بدهشة، لا يبدو عليها أنها تقرأ الرعب أصلاً.. هذه فتاة خُلقت لتقرأ الأشعار والروايات الرومانسية، وربما تبكي لأن البطل ترك حبيبته.. ولكن الرعب؟!
أما هي، فما كادت تنتهي حتى انتبهت لنفسها أنها قاطعت كلامه.. فأسرعت تعتذر إليه بشدة.. نفى برأسه بابتسامة ثم قال:
- لا بأس، لم ترتكبي جُرماً.
ثم أخرج لها بطاقة من جيب بذلته، وأعطاها لها مُكملاً:
- هذا عنوان مركزي.. إذا احتجتِ أي استشارة فأنا في الخدمة.
أخذت منه البطاقة، ثم وهي تقرأ سألها بمرح:
- إذاً أنتِ كاتبة.. ما اسم روايتكِ، وبأي تصنيف تكتبين؟
احمرّت وجنتاها بشدة، ثم أخبرته بخفوت:
- رواياتي ذات طابع اجتماعي ورومانسي.
كما ظن تماماً..

لم يُرد أن يُطيل أكثر من ذلك، لذا قال بابتسامة:
- سعدتُ بلقائكِ.. اااه، لم تخبريني باسمكِ؟
أجابته:
- اسمي **"بتول محمد"**.
ثم حيّته بهزة من رأسها، ورحلت..
عاد للداخل مرة أخرى.. يا إلهي! إنها مزيج حيّره هو شخصياً.. لطيفة وبريئة جداً، ومع ذلك تقرأ الرعب! خجولة جداً وقد ارتبكت عندما حادثها، وفي نفس الوقت أحياناً تتحدث بعفوية جميلة.. همس لنفسه "أشعر أنها تُخفي الكثير!"..

*****

عادت لمنزلها، فسلّمت على والدتها واحتضنتها.. ثم ذهبت لغرفتها لتُبدّل ملابسها.. وبينما كانت تتناول الغداء مع والدتها، إذ قالت لها بحماس:
- أمي! أتعلمين من قابلتُ اليوم.. د. **"هيثم"**، كاتب الرعب الذي أحب أن أقرأ له.
ابتسمت لها والدتها، ثم أكملت طعامها.. ابتلعت **"بتول"** لقمة أخرى ثم قالت بحرج:

- أعطاني بطاقة بها عنوان مركزه النفسي، ورقم الهاتف.. إنه ناجح.. وو، وقد كنتُ أريد أن أذهب لاستشارته في بعض الأمور.
عقدت والدتها حاجبيها، ثم سألتها:
- هل تشكين من شيء؟
نفت الأخرى برأسها بسرعة، ثم قالت:
- فقط بعض الأشياء المهمة جداً، والتي تُحيّرني.. أردتُ أن أستشيره بها، ربما ساعدني أيضاً.. إنها فرصة تُقدم لي على طبق من ذهب.
صمتت والدتها تقلّب الأمور برأسها، وبعد دقائق تنهدت ثم أجابتها:
- حسناً، ولكني سأذهب معكِ.. أعطيني الرقم لآخذ منهم موعداً.

*****

في اليوم التالي.. كان جالساً بمكتبه بعد انتهاء مواعيد اليوم.. خلع النظارة مُمسكاً بها، ثم أغلق عينيه لثوانٍ.. تذكر شيئاً، فابتسم فاتحاً عينيه ثم ارتدى نظارته وأخرج الرواية التي نشرتها مؤخراً من درج المكتب..

ساعتين وكان قد انتهى منها، خصوصاً أنه سريع القراءة وقد كانت الرواية صغيرة الحجم..
نظر إلى الورقة التي أمامه، والتي خطّ عليها بعض النقاط من تحليله للرواية، وصاحبتها..

أولاً، المشاعر داخل الرواية جيّاشة بشكل لا يوصف.. هذه الفتاة قنبلة مشاعر -إن صح هذا التعبير-.. وبما أنها عزباء، فالحل الوحيد لها تفريغ مشاعرها الجياشة تلك على الورق..

ثانياً، هو لاحظ عدم وجود حبكة على غرار: (فراق المحبوبين - شجارٌ بينهما - مثلث حبّ - حبّ من طرف واحد) هي لم تتطرق أصلاً للموضوعين الأخيرين.. ربّما كان مُخطئاً، وربما تطرقت إليهما في رواياتها الأخرى.. ولكن عموماً، فهو يدلّ أنها تمقتُ الفراق وكل شيء من شأنه أن يُفسد العلاقات..

ثالثاً، تُظهر جداً العلاقة الوطيدة بين البنت وأبيها.. وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على أنها بحاجة لحنان الأب.. ربما كان والدها قاسياً، ربما كان متوفياً.. وربما كان هو مُخطئاً..

شعر برأسه يكاد ينفجر من كثرة التفكير، ولكن مهلاً.. لِمَ يهتم بها من الأساس؟ هي إنسان كأي إنسان، وهي لم تطلب منه أصلاً أن يُساعدها، فهل سيتطوع هو بشيء لم تُرده هي؟!

ولكنه برر أفعاله قائلاً: "هي أول فتاة تجذبني شخصيتها.. شعورٌ بأنها مسؤولة مني يتخلل كياني.. أيضاً كونها مزيجٌ غريب ومتناقض، أريد أن أحلل شخصيتها لأخمد فضولي.. االاه ما بي؟!"

جذب شعره، مُرجعاً إياه للخلف.. ثم اتخذ قراره، سيأخذ إجازة لأسبوع.. يقرأ فيها ما كتبته هي، حينها سيستطيع تحليلها جيداً، ثم ينسى الأمر برمّته..

*****

دخلت عليها والدتها الغرفة، وكما توقعت تماماً كانت **"بتول"** تجلس على السرير تُمسك بيدها رواية تقرأها.. تنهدت الأم، ولمّا انتبهت **"بتول"** لها حتى سارعت بغلق الرواية.. ثم أفسحت لوالدتها بجانبها.. تحدثت الأم بعد فترة من الصمت:

- هاتفتُ اليوم رقم المركز.. أخبروني أن دكتور **"هيثم"** في إجازة لمدة أسبوع، ولكن هناك أطباء غيره بالمركز.
نظرت لها **"بتول"**، ثم أجابتها:
- لا بأس، سننتظره.. أنا أثق بدكتور **"هيثم"**، كما أنه بارع في التحليل النفسي.. أحب طريقته التي تجمع بين الدين، والعلم والواقع.. وبالطبع عقله.
ثم صمتت قليلاً، وسألتها:
- أمي، أريد أن أذهب لطبيب العيون كي أطمئن على نظري.. منذ فترة أشعر أن رؤيتي مشوشة قليلاً.

*****

"هيثم"

وأخيراً انتهيتُ من قراءة ثم تحليل تلك الفتاة.. يا إلهي! إنها كُتلة من التناقض، وأنا أكاد أجزم أنها مُترددة جداً ولا تستطيع فهم نفسها جيداً..

كما توقعتُ تماماً، هي كتلة مشاعر موقوتة.. فقط هي تنتظر ذلك الذي تبوح له بمشاعرها الجياشة..
بصراحة، عند هذه النقطة شعرتُ بقلبي يرقص طرباً.. أنا أعزب، وفتاة بتلك الصفة هي أروع رزق من الله ﷻ..
أيضاً نقطة الأب، هي دائماً تُظهر حنو، وإظهار الأب لمشاعره تجاه الابن أو البنت وتدليلهم.. تُظهره بشكل واضح جداً، وأنا أشك في عدة أمور: إما أن والدها متوفٍ، إما أنه يُعاملها -أو كان يُعاملها- بشكل جاف إلى حد ما.. أو أنه طلّق والدتها..
مشكلة هذه الفتاة أنها كلوح الزجاج، شفافة تماماً.. على الأقل بالنسبة لي، ولا أحتاج لمجهود كبير لأُحلل شخصيتها..
اه، نقطة أخرى.. هي لم تذكر في أي من رواياتها -التي هي عشر روايات- مفهوم الصداقة بين الفتيات.. فإما أنها انطوائية -وهذا واردٌ بشخصيتها تلك- أو أنها تعرضت

لموقف، أو مواقف، جعلها تكره مُصادقة أحد.. أيضاً فإنها دائماً تُظهر البطل حنون، وتجعله هو الذي يبدأ خطوة الإعجاب والحُب وليس الفتاة..
أعتقد جداً أن هذا ناجمٌ عن إعجابها في فترة مراهقتها بشخصٍ معين، ولكنه لم يُبادلها..
لا أُنكر أنني شعرتُ بالغضب الشديد، وشعرتُ بنار في قلبي.. ما بي؟! ألم أقل بأني سأحلل شخصيتها وأنساها؟ إذاً يجب عليّ أن أفعل ذلك..
حسناً يا **"هيثم"** اهدأ، ثم اخلد للنوم لأن لديكَ عملاً في الغد.. انتهت فترة الإجازة وبدأ الجدّ..

ذهبتُ للمركز في اليوم التالي.. فأخبرتني السكرتيرة بأن لديّ جلسة واحدة فقط.. تنفستُ بعمق، جيدٌ جداً..
اتجهتُ ناحية غرفة مكتبي، بعد أن أخبرتُ السكرتيرة بأن تُعطيني ملف الحالة، وتُرسلها عندي.. فتحتُ الباب الزجاجي الذي يُغلق المكتب، ثم جلستُ وراء المكتب..
كدتُ أفتح الملف حتى أرى الاسم، فسمعتُ طرق الباب..
أمرتُ الطارق أن يدخل، وعيني على الملف.. عندها رفعتُ رأسي بعدما قرأتُ الاسم.. **"بتول محمد"**..
حسناً، أنا لم أتوقع ذلك مُطلقاً!

كانت الساعة التاسعة والنصف، حين دخلت **"بتول"** المركز مع والدتها.. في البداية استقبلتهما سكرتيرة، فأخذتْ منها بعض البيانات.. ثم ابتسمتْ لهما مُشيرةً للمبنى الآخر حتى تدخلا..
كان يفصل بين المبنيين فناء واسع.. ذو ألوان متنوعة، اللون الأخضر المُتمثل في الشجيرات والعُشب.. الألون الزاهية المتمثلة في الأزهار العطرة.. والشفافية والنقاء، المتمثلَين في نافورة المياه الجميلة..
أيضاً كان هناك كراسٍ متوزعة.. كان المكان هادئاً، ولكنه لم يكن خالياً..
أما المبنى الآخر، فكان جميلاً.. لم يكن كما تُصوِّر الأفلام كئيباً.. وقد كان هادئاً أيضاً..

بعد ربع ساعة من الجلوس مع والدتها في قاعة الانتظار، أخبرتهما السكرتيرة أن يتبعوها للدخول.. وما إن وصلتا للغرفة، حتى اندهشت **"بتول"** من الباب الزجاجي لها..
طرقت السكرتيرة الباب، ثم فتحته..
- دكتور **"هيثم"**.. لقد أتت الحالة.

أومأ لها برأسه، وما زال أثر الدهشة به.. خرجت السكرتيرة تاركةً إياهم، فسارع هو بأن يدعوهن للجلوس.. رحّب بهن بشدة، بطريقة أثارت دهشة الأم.. ولكنها لم تُعلّق، ثم بدأ هو الحديث قائلاً بلباقة:

- إذاً.. من التي سيكون لي شرف سماعها؟

كان ينقل بصره بينهما، ولكن الفتاة لم تتحدث.. بل تحدثت والدتها قائلة بعدما رأت صمتها:

- حسناً.. ابنتي كانت تريد استشارتك في عدة أشياء.

هو شعر بأن الأم ليست من النوع المسيطر، فقط هي تحدثت لمّا رأت ابنتها لم تردّ.. ابتسم هو ثم أجابها:

- لا بأس.. والآن أنا أعتذر منكِ يا خالتي، ولكننا يجب أن نتحدث بمفردنا أنا والآنسة **"بتول"**.. تعلمين، يجب أن يُحاط الأمر بسرية بين المستشير والطبيب، وفقط.

رأى نظرة التردد والشك في عيني الأم، وأحس بنظرة الذعر بعيني الفتاة.. فأسرع يُصحح:

- ترون هذا الباب الزجاجي؟! فأنا لم أصنعه إلا لهذا السبب؛ حتى لا تكون بيني وبين النساء أي خلوة.

ارتاحت الأم بعض الشيء، ولكنها قالت له:

- حسناً سأنتظرها أمام الغرفة.

ثم اتجهت ناحية الخارج، وتتبعها هو بنظره.. تذكر شيئاً، فأسرع يحمل الكرسي المقابل ل**"بتول"**، وأعطاه للأم بالخارج..
رأت تصرفه النبيل، فأُعجبت بهذا التصرف جداً وتعامله اللطيف مع والدتها..
جلس على مقعده وراء المكتب، ثم بدأ حديثه بمرح:
- مُباركٌ على النظارة.
أجابته بابتسامة خفيفة، فأكمل هو:
- في البداية، أريد منكِ أن تكوني صريحة معي.. أخبريني، أو اسأليني بما يجول في ذهنكِ دونما تفكير.. وتذكري، كلما كنتِ صريحة، كلما كانت إجابتي عليكِ واضحة بإذن الله.
أومأت له، وقالت:
- حسناً.
أكمل بابتسامة:
- حسناً، يمكنكِ أن تبدأي الحديث.
كان هو مُنتبهاً لها بكل حواسه، يُراقب سلوكها وردود أفعالها.. فرآها تنظر في اتجاهات شتى.. مرة له، مرة ليدها، مرة للغرفة، وهكذا..
أجابته بحرج:
- لا أعرف بمَ أبدأ؟ ألن تسألني؟!

ابتسم مرة أخرى، ثم قال:
- تحدثي بما يجول في ذهنكِ.. مثلاً، ماذا تُحبين.. ماذا تكرهين.. ممَ تخافين.
التقطت هي خيط حديثه، فقالت:
- أخاف من الرجال.
ذُهل هو، "يا إلهي! بداية مشوّقة" هكذا قال لنفسه، قبل أن يسألها:
- حسناً أخبريني، هل تعرضتِ لموقف مؤلم في الماضي؟
فهمت سؤاله، فاحمرّت وجنتاها وأجابته بالنفي.. تفكّر قليلاً، ثم سألها:
- هل عندما تتعاملين مع رجل، تشعرين بضيق في التنفس أو غثيان.. تسارع نبضات القلب بشكل كبير.. ربما ترتجفين مثلاً وأنتِ تتحدثين معه؟
أجابته:
- حسناً ربما ينبض قلبي بخوف، كالخوف العادي من كلب.. ولكن لا، لا توجد أي من أعراض فوبيا الرجال تنطبق عليّ.
ابتسم بإعجاب قائلاً:
- يبدو أنكِ مثقفة!
ثم سألها قائلاً:
- ولكنكِ الآن تجلسين معي، هل تشعرين بالخوف مني؟

هزت رأسها نافية، ثم أجابته:
- هذا لأني تعاملتُ معكَ مُسبقاً.. أنا هكذا، أخاف من الرجال ككل، ومن التعامل معهم أو الاختلاط بهم.. فإذا تعاملتُ مثلاً مع أحد ما، لضرورة.. زال ذلك الخوف، وحلّت محله الثقة بمن أتعامل.
صمت قليلاً يُقلّب الأمور برأسه.. إذاً هذه مشكلة ثقة، وليست مشكلة خوفٍ ككل.. نظر إليها بتردد، وابتلع ريقه.. بنسبة كبيرة هو سيدخل في النطاق الشائك لها، ولكن لابد من ذلك إن أرادت أن تتعافى.. سألها مرة أخرى:
- كيف هو والدكِ معكِ؟
ترقرقت الدموع في عينيها، ولم تستطع التحكم بنفسها.. سالت الدموع من عينيها، بينما هي تحاول مسحها وقالت:
- هو مُتوفٍ منذ سنتين.
شعر بغُصة في حلقه، وألم عصيب بقلبه على منظرها الحزين.. ما به؟! لم يكن هكذا مع أي مريض يستشيره.. ربما كان يتعاطف قليلاً كونه إنسان، ولكن منذ متى كان حساساً هكذا؟ اعتذر منها بشدة، وبعد أن هدأت.. قالت بنفسها:
- لم يكن من ذلك النوع المتسلط دائماً وأبداً.. فقط كانت عصبيته وغضبه يسبقانه.. أراه يمزح معي ويضحك، ثم

بعدها مباشرة أراه يصرخ بي ويسخر مني.. حسناً، أحياناً يُظهر مشاعره لي، ولكن هاتان كانتا مشكلتاي معه.. أنا أكره التناقض يا دكتور **"هيثم"**، فإما أن تكون أبيض معي، أو أسود.. إن أردتَ أن تكون رمادياً فممكن.. ولكن من فضلك لا تجمع بين الثلاثة.. أعلم أن الحياة صعبة، والمشاكل.. إلى آخره، ولكن لماذا نُخرج عصبيتنا على من نُحبهم؟
علم هو أنها مشتتة وأفكارها غير مرتبة، لذا هي ربما تقول أشياء كثيرة غير مترابطة.. رآها تكفكف دموعها ثم تذكرت شيئاً وسألته:
- هل تسجل لي الجلسة؟
ابتسم قائلاً:
- اطمأني.. أنا أنتمي لذلك النوع القديم، الذي يُسجّل النقاط الأساسية في ورقة.
رآها تضحك بخفة، فابتسم براحة.. أكملت وهي تنظر بشرود:
- أتعلم؟ مرة حين كنتُ صغيرة، كنتُ وقتها في السادسة من عمري.. عُدتُ من الحضانة فأخبرتُ أمي ببراءة الأطفال أنني أُحب ولداً معي بالحضانة.. ولم تكد ترد عليّ حتى أمسكني أبي بشدة وصرخ بوجهي "ماذا تقولين؟ هل جننتِ؟"

وكاد يضربني لولا تدخل والدتي التي حالت بيني وبينه..
هدّأتْه، ثم تحدثت إليّ بحكمة ونصحتني أن هذا خطأ..
ومن وقتها وأمي أقرب الناس إليّ، ولا أثق بأحد سواها.
ثم صمتت قليلاً، وقالت وهي تبتسم:
- أتعلم أيضاً؟ عمري الآن ست وعشرون سنة، وبالرغم من ذلك لا أستطيع فعل شيء دون مساعدة أمي.. أو حتى اتخاذ قرار دون أخذ رأيها.
هو يعلم يقيناً أن ابتسامتها تلك، وقبله شرودها لم يكن جنوناً.. فقط هي أثقلها الكتمان.. وهو الآن لا يُمسك طرف الخيط، وإنما يمسك خيطها بأكمله بين يديه.. فقط ينتظر الوقت والصبر، ثم يُدخل الخيط داخل الإبرة..

ليست مريضة، وإنما هي ضحية شخص كان بحاجة لاستشارة أسرية..
تحدث معها في أشياء متنوعة، ثم أخبرها أن تنتظره..
خرج ليتحدث مع والدتها قليلاً..
عاد لها بعد فترة قصيرة، مع والدتها.. ابتسم لهما، بالأخص ل**"بتول"** وقال:
- سعدتُ بلقائكِ آنسة **"بتول"**.. سأنتظركِ بإذن الله في نفس الموعد من الأسبوع القادم.

وبعد رحيلهما، جلس على الأريكة وزفر الهواء بتعب وإرهاق.. يأمل فقط أن تُفكّر الأم في عَرضه، وتوافق عليه..

*****

انشغل بعدها كثيراً، بمشاغل العمل والمركز.. حتى أتى قبل موعدها بيوم..
لم يكن قد نسيها تماماً، وإنما تراكمات العمل في عقله جعلته لا يهتم إلا به في الوقت الحالي..
كان مُمدداً على السرير، واضعاً يديه خلف رأسه يُفكر بحالة **"بتول"**، وكان قد لخّص شخصيتها في بضع نقاط:
١- هي لا تثق بالرجال، لأنها ترى والدها فيهم.. أيضاً هو يعتقد أنها تخاف أن تُعجب بشخص لنفس السبب.
٢- داخلها صراع كبير، بين عقلها الباطن الذي يكره والدها وتصرفاته.. وبين قلبها وتربيتها الإسلامية التي تأبى ذلك.
٣- هي متعلقة جداً بوالدتها.. باختصار، هي لم تُفطم نفسياً من والدتها، بعد.
٤- تجنبها للتعامل مع الرجال كأنهم مرض، ليس بسبب والدها.. بقدر ما هو بسبب ذلك الموقف حين كانت صغيرة.. وهنا نظرية الارتباط الشرطي تُعلن عن نفسها بوضوح.

بالطبع ما زال هناك ضبابٌ في بعض الأمور، ولكن على الأقل هذا ما استنتجه من حديثها وتصرفاتها..
قرر أن يأخذ نصيبه من النوم، وغداً بإذن الله سيرى إن كانت والدتها قد وافقت على عرضه أم لا..

*****

وصل في موعده، فترجّل من السيارة بهدوء.. لحسن حظ **"بتول"**، فاليوم من كل أسبوع يكون متفرغاً من ضغط العمل..
دخل الغرفة، وبعد دقائق دخلت الفتاة ووالدتها.. رحّب بهما، ثم اعتذر من **"بتول"** ليتحدث مع والدتها بالخارج..
بدأ حديثه بابتسامة:
- ماذا قلتِ يا خالتي بشأن ما طلبتُه منكِ في الأسبوع الماضي؟
صمتت الأم هُنيهة، لتستجمع كلامها.. ثم قالت بخفوت:
- حسناً يا بني.. أنا موافقة، ولكن هل ستكون بأمان هنا؟
فرح كثيراً بموافقتها، وأسرع يقول:

- بالطبع ستكون بأمان.. ستكون في غرفة بمفردها، وسأُوصي أفضل الممرضات هنا حتى تعتني بها.. أعدكِ بإذن الله، ستشعر أنها بمنزلها.
هزت رأسها، ثم قالت له:
- حسناً، سأودعها.. ثم أذهب للمنزل لآتي بحاجياتها المهمة، وسأعود بإذن الله.
أومأ برأسه بالإيجاب مبتسماً، ثم ذكّرها:
- وكما قلتُ لكِ يا خالتي.. لا زيارات قبل أن أخبركِ أنا.

دخلا معاً، فاحتضنت الأم ابنتها قائلة:
- حبيبتي، سأذهب للمنزل فقد نسيتُ شيئاً.. حسناً؟
أومأت **"بتول"** بتردد..

بعد رحيل الأم.. بدأ **"هيثم"** حديثه بابتسامة:
- كيف حالكِ آنسة **"بتول"**؟
نظرت له لثوانٍ، ثم أشاحت وجهها وأجابته بهدوء:
- الحمد لله، بخير.
سألها، وما زال مبتسماً:
- أردتُ أن أعرف، هل أنتِ انطوائية أم تحبين تكوين صداقات؟

أجابته:
- لا لستُ انطوائية.. أحب التعرف على الفتيات، والحديث معهن.. ولكن تكوين الصداقات! لطالما كنتُ فاشلة في ذلك.
سألها بتعجب:
- والسبب؟!
تنهدت، ثم قالت:
- لا أعلم.. منذ كنتُ في الإعدادية، وأنا أُحبّ التعرّف على جميع الفتيات.. لكن أن تكون هناك صديقة معينة لي، فلا.. لم أحبّ ذلك مُطلقاً، لا أحب أن أكون ثقيلة على أحد.. لا أحب أن أُرفض.. لا أحب أن يأتي يوم ويكرهني شخص بعد فترة من الحبّ، أو الصداقة.
شبك يديه، وأسندهما تحت ذقنه، ثم سألها:
- إذاً هل هذا سبب عدم كونكِ مخطوبة حتى الآن؟
احمرّت وجنتاها، ولكنها أجابته:
- نعم.. تعرف؟ لطالما تمنيتُ أن تكون لي أسرة، زوجٌ يحبني وأحبّه.. وأطفالٌ أحبهم ويحبونني بشدة..
ولكن عندما يتقدم لي أحدٌ لخطبتي، أفكّر كثيراً جداً ثم أرفضه.. أخاف جداً أن يكون كأبي، وقد كان أبي يُفضّل أشياء كثيرة على والدتي وعليّ.. كان أبي دائماً يعود من العمل، فيُفرغ طاقة غضبه بنا.. ربما لم يكن يمدّ يده عليّ أو

على أمي، ولكن مجرّد أنه يكبت غضبه بالخارج، ويظهر بمظهر الهادئ الرقيق، ثم يتغير ذلك عندما يعود للمنزل..
كلما تذكرتُ ذلك الأمر، يؤلمني قلبي بشدة وأخاف أن أتزوج شخصاً ما فيكون هكذا.

*****

"هيثم"

كنتُ أسمعها بإنصات شديد.. كانت عيناها تدمع عندما تذكر موقفاً سيئاً لوالدها.. يؤلمني قلبي بشدة لمرآها هكذا، ولا أستطيع فعل شيء لها..
ها هي ذي ضحيةٌ لشخص كان يحتاج لاستشارة أسرية ونفسية، فقدت الثقة بمن حولها بسبب والدها وتعامله المتناقض.. هي تخاف أن يتكرر ما كان يفعله والدها، مع صديقة أو زوج!

حسناً، لمعالجة ذلك الأمر كان لابد أن يأتي والدها معها.. نتحدث ثلاثتنا سوياً، ونتّبع طريقة للعلاج.. ولكن للأسف هذا مستحيلٌ الآن، لذا سألجأ للكرسيّ كطريقة جيدة إلى حد كبير.. ولكن ليس الآن..
أيضاً لاحظتُ أنها بدأت تتحدث بمفردها، وهذا شيء جيدٌ جداً..
وجدتُ هاتف الغرفة يرن، فرفعتُ السماعة..

- دكتور **"هيثم"**، والدة الآنسة **"بتول"** قد تركت حقيبتان هنا للآنسة.

تنهدتُ.. ثم أخبرتُها أن تُرسل أحداً ليضعها في الغرفة التي طلبتُ منهم تحضيرها لها للاحتياط..
وضعتُ السماعة، فوجدتُها تنظر لأصابع يدها.. حمحمتُ أجذب انتباهها، ثم قلتُ:
- آنسة **"بتول"**، أردتُ إخباركِ أننا سنستضيفكِ هنا لبعض الوقت.
لمعت عيناها.. مُنذرة بهطول دموعها، وقالت بنبرة خائفة:
- هه.. هل أنا مريضة؟
آلمني قلبي بشدة من منظرها الحزين، فأخبرتُها بسرعة لأُطمئنها:
- لا، لا.. فقط أريد أن أراقبكِ، وأراقب سلوككِ.. ولا تقلقي، لن تمكثي طويلاً.. ربما شهرٌ أو أكثر قليلاً.
سألت بأسى:
- وأمي؟!
أجبتُها وقد كنتُ أتوقع سؤالها ذاك:
- لقد أخبرتُها بكل شيء.. ولا تقلقي، سأجعلها تزوركِ.
تنهدتْ، ثم هزت رأسها بتردد..
حمدتُ الله أني لم أجد معارضة منها.. قلتُ لها بابتسامة:
- إذاً ما رأيكِ أن تري حجرتكِ، أراهن أنها ستعجبكِ.

بعدما عادت الأم للمنزل، وشرعت في ترتيب الحقيبة ل**"بتول"**.. حزنت بشدة أن ابنتها ستمكث بعيداً عنها لشهر أو أكثر قليلاً..
بعدما انتهت، وأغلقت الحقيبة.. تذكرت حديث ذلك الطبيب معها في الأسبوع الماضي..

- فقط أنا أريد أن نستضيفها هنا لبعض الوقت.. بإذن الله سيساعد في تقويم سلوكها.
قال لها **"هيثم"** بهدوء، فأجابته بحدة:
- وهل ابنتي مجنونة؟ لماذا ستمكثُ هنا؟!
أجابها بهدوء، وهو يتفهم تماماً غضب والدتها:
- **"بتول"** لم تُفطم نفسياً من الأسرة بعد.. أنا آسف لقولي ذلك، ولكن جزء من الذنب يقع عليكِ يا خالتي.
بُهتت وهي تسمعه، فقالت بصدمة:
- أنا؟!
هز رأسه بالإيجاب، ثم أخبرها:
- للأسف يا خالتي، **"بتول"** شخصيتها ضعيفة.. تفقد الثقة بنفسها.. هي أخبرتني أنها لا تستطيع فعل شيء بمفردها دون الرجوع إليكِ.

تحدثت الأم بأسى:
- ولكني يا ولدي لم أقصد أن أجعلها هكذا.. هي دائماً من كانت تُصرّ على ذلك.
ابتسم لها، ثم أجابها:
- كان يجب عليكِ الضغط عليها حتى تعتمد على نفسها.. حسناً، الآن لا يُفيد البكاء على اللبن المسكوب، لذا سأعرض عليكِ عرضاً.. **"بتول"** ستبقى هنا في المركز حتى تستكمل علاجها، وحتى تكون بعيدة عنكِ وتتعلم الاعتماد على نفسها.. ولا تقلقي، ستُعامل كأنها في منزلها.
تنهدت ثم أجابته:
- حسناً يا ولدي.. سأفكّر في هذا الأمر.

*****

"بتول"

شعرتُ بانقباضة في صدري، حين قال لي دكتور **"هيثم"** أنني سأمكث هنا لبعض الوقت.. حسناً، أنا أثق به.. ولكني أشعر بالحزن الشديد لأنني سأكون بعيدة عن أمي..
لا أعرف كيف سيمر كل هذا الوقت عليّ دون أن أكون معها، ولكني واثقة أن هذا الطبيب لم يفعل ذلك، إلا لأنه رأى أن هذا من مصلحتي..
مُعجبة به؟ ربّما، لا أعرف.. دائماً ما كنتُ لا أفهم مشاعري.. يمكنني القول أنه وسيم، نبيلٌ ولبقٌ في تعامله وحديثه..
هذا ما أُحسّه أنا، أما هو.. فبالطبع لا أعلم، ولكن لا أعتقد ذلك.. أعتقد أن شعوره ينحصر بين (طبيب - مريضته) وفقط.. كما أنه نقيضي تماماً، ولا أعتقد أن طبيباً نفسياً سيكون سعيداً بخطبة مريضته!
هو قوي الشخصية، واثقٌ جداً بنفسه، لبقٌ في الحديث والردود.. وربّما جريء إلى حدّ ما، أما أنا فعكسه تماماً.. شخصٌ كشخصه سيُحب أن تكون فتاته مثله..
اه يا إلهي! ما كل هذه الأفكار الغريبة؟! أنا هنا للعلاج وفقط!

هاتَف ممرضة، ثم جعلها تصطحبني لحجرتي.. وعندما وصلتُ للغرفة ودخلتُها أعجبتني بشدة كما قال..

كانت ألوانها هادئة، وكان هناك سرير وبجانبه كومود عليه بعض الروايات.. يبدو أن والدتي قد جلبتهم مع ملابسي..
أيضاً كانت هناك نافذة تُطل على الحديقة، وقد كان هذا أجمل شيء في الغرفة بأكملها..

*****

في اليوم التالي، استيقظتُ متأخراً قليلاً.. توضأتُ وصليتُ الصبح.. ثم وقفتُ أنظر من النافذة..
طُرق الباب، فأذنتُ للطارق بالدخول..
كان الدكتور **"هيثم"**، ومعه طبيبة أخرى.. سلّما عليّ، ثم بدأ دكتور **"هيثم"** حديثه:
- آنسة **"بتول"**، هذه دكتورة **"مها"**.. ستكون معنا في جلسة اليوم.
عقدتُ حاجبيّ بضيق.. هل هذا من المحافظة على أسرار المرضى؟! أخبرتُه أنني أريد الحديث معه في أمرٍ مهم،

فاستأذن من الطبيبة وذهبنا لنقف خارج حجرتي.. بدأتُ حديثي قائلة بضيق:
- لماذا هذه الطبيبة معنا؟ أليس هذا مُخالفاً لقواعد المحافظة على أسرار المرضى؟
وجدتُه يبتسم، ثم قال:
- أنا آسف.. ولكنها مُهمة جداً معنا اليوم، وأنا أُطمئنكِ لم أخبرها شيئاً مما أخبرتِني إياه.
تنهدتُ ثم أومأتُ برأسي باستسلام..

*****

"هيثم"

يا إلهي! حتى وهي مُتضايقة، كُتلة من اللطافة..
في الحقيقة لم أكن أخدعها قط.. ولكني استدعيتُ دكتورة **"مها"** معنا لسبب أتوقعه جداً، ويحدث بكثرة في جلسة العلاج هذه..

اتجهنا لغرفة أخرى غير غرفتي.. لا أريدها أن تربط بين غرفة مكتبي، وبين أي شيء سيئ..
كانت الإضاءة خافتة جداً، حتى أُشعرها بالهدوء والاطمئنان.. جعلتُها تجلس، وقد كان أمامها كرسي..
وجعلتُ **"مها"** تجلس بجانبها، ثم أخبرتُها بهدوء:
- لا تقلقي.. هذه طريقة من طُرق العلاج، ما عليكِ سوى أن تتخيلي أنكِ تُحادثين أباكِ، وتعاتبينه.. أعلم أن الأمر سيكون صعباً وشاقاً عليكِ.. ولكن أرجوكِ أن تحاولي، حسناً؟
أومأت برأسها بالإيجاب، بخفوت..

فترة صمت طويلة قد مرّت.. حتى كادت **"مها"** أن تتحدث من الملل، فأشرتُ لها بعيني أحذّرها..

أعلم جيداً أن هناك صراع رهيب يدور داخل نفس **"بتول"** الآن، لا تعلم هل تنصاع لرغبتها في الحديث وبثّ ما بداخلها.. أم تصمت وتكتم ما بداخلها، وهذه النقطة ناجمة عن تربيتها وضميرها..

أخيراً بدأت بالحديث، قائلةً بصوت مرتجف:
ـ ك.. كيف حالكَ يا أبي؟ أأ أرجو أن تكون بخير..
فقط أردتُ أن أخبركَ بأشياء، وأنا أتمنى ألا توبخني أو تسخر مني.. حسناً؟
هل أنتَ سعيدٌ الآن؟ أعني بعدما كنتَ تتعامل معي بتناقض..
هل تذكر كم مرة كنتُ جالسةً فيها معكَ، تحادثني عن أمور شتى.. فنضحك سوياً، ونتناقش معاً.. ثم بعدها تصرخ بي، أو تسبّني؟
هل تعلم ماذا كنتُ أفعل؟ حسناً سأخبرك.. كنتُ أُغلق الغرفة عليّ وأبكي بحُرقة، من قسوة ما تلعب بنفسيتي..
كنتُ أحاول قدر استطاعتي أن أتجنبك، ولكن يغلبني قلبي..
هل تعلم كم من مرة أُعجبتُ فيها بشخص طوال فترة مراهقتي.. فقط لأني رأيتُه يتعامل معي بحنان الأب؟ هل تعلم كم من مرة تمنيتُ فيها أن ترحلَ بعيداً، أو على الأقل

أتزوج أنا بشخص أكبر مني بكثير.. فقط ليعوضني عن تناقضكَ معي؟
رأيتُها تصمتُ، لتأخذ أنفاسها.. ثم أكملت بصوتٍ باكٍ:
- أنا لم أكرهكَ بحياتي.. ربّما لم أفهم مشاعري تجاهكَ، ولكني لم أُرد أن أكرهك.. لطالما قاومتُ مشاعر البُغض تجاهك.. ولطالما دعوتُ الله أن تتغير معاملتكَ المضطربة لي، حتى أشعر بتلك الأشياء التي يُطلقون عليها "حنان الأب"!
ثم انهارت بعدها تصرخ وتبكي بشدة.. فأسرعت لها **"مها"** كي تحتضنها بلُطف كما أخبرتُها من قبل.. أما أنا، فاتخذتُ زاوية من الغرفة، وشرعتْ دموعي تنهمر ساخنةً على وجنتيّ..
قلبي يؤلمني الآن بشدة، لكونها حزينة ولا أستطيع فعل شيء لها..
رأيتُها تدفع **"مها"** بعيداً عنها، ثم أكملت ببكاء عنيف:
- فقط عُد يا أبي.. عُد وأخبرني أنكَ ستتعامل معي كأي أبٍ حنون، وأنا سأسامحكَ فوراً.. عُد ولا تفضّل شيئاً عليّ وعلى أمي، وأنا سأحبّكَ بكل جوارحي.. عُد، عُد!

كانت تكرر الكلمة الأخيرة بقهر، فاقتربت منها **"مها"** مرة أخرى، وأخذتها بحضنها وربتت على ظهرها بحنان وهي تقول:

- لا بأس يا حبيبتي.. لا بأس، كل شيء سيكون بخير.

كنتُ أُراقبهما بحُرقة في قلبي.. وددتُ أن أكون أنا مكان الدكتورة **"مها"** الآن، فآخذ **"بتول"** في حضني..

أعتقد أنني الآن في حاجة لحضن **"بتول"**، أكثر منها شخصياً!

مسحتُ دموعي بسرعة، ثم ذهبتُ لأغسل وجهي.. وأشرتُ ل**"مها"** حتى تأخذ **"بتول"** لحجرتها..

قلتُ لها بفمي دون صوت:

- خذيها لحجرتها، واجلسي معها قليلاً حتى تهدأ.. أعتقد أنها ستنام بعد ذلك المجهود.

*****

غادر الحجرة وهو يقبض على يديه بشدة.. كان يقاوم كل ذرة به لكيلا يعود ويحتضنها، فاتجه لغرفة مكتبه وأغلقها بالمفتاح.. ثم ذهب للسكرتيرة وقال لها بصوت مخنوق:
- أرسلي الحالات إلى دكتور **"عُمر"**.. سأغادر الآن!
ثم ذهب للجراج، وصعد لسيارته ثم قادها عائداً لمنزله..

*****

كانت هذه أول مرة يتأثر بها بهذا الشكل من حالة لديه.. دائماً ما كان يستطيع الفصل بين عمله وما يسمعه من الحالات، وبين حياته.. وكان يحاول دائماً ألا يؤثر عليه ذلك بالسلب..
أما الآن، فهو يُريد أن يصرخ ويبكي بصوتٍ عالٍ..
هو نفسه ربما لا يستطيع وصف مقدار الألم والحزن الذي يشعر بهما..

ولكنه يعلم شيئاً واحداً، **"بتول"** لن يتزوجها غيره بإذن الله..
سيسير معها خطوة خطوة في طريق مُعافاتها، ليس لأجله، وإنما لأجلها.. وفقط!
تفتقد الحنان؟ سيُغدقها به كأنها ابنته..
مشاعرها جيّاشة؟ سيفوقها أضعافاً في إظهار مشاعره..

تكره التناقض، وأن يُفرغ الشخص غضبه في أسرته؟ سيخلع ثوب العمل ما إن يصل لمنزلهما، وإن تطلب الأمر ألا يعود لمنزله وهو مشحونٌ من العمل.. فسيفعلها..
سيفعل أي شيء تتخيله، أو لا تتخيله.. فقط لينال رِضاها، وحتى ينفّذ وصية رسول الله ﷺ.. "استوصوا بالنساء خيراً"..

*****

"بتول"

جلست معي دكتورة **"مها"** قليلاً في حجرتي.. كنا نتحدث في أشياء متعددة.. حتى شعرتُ بالنعاس الشديد، فاستأذنتُ منها لأنام..

*****

بعد ساعتين، استيقظتُ.. صلّيتُ الظهر ثم جلستُ أقرأ قليلاً.. لا أُنكر أنني الآن أشعر براحة كبيرة..

*****

بعد العصر تقريباً، وجدتُ الباب يُطرق.. اعتقدتُ أنه دكتور **"هيثم"**، فأمرتُه أن ينتظر ثم ارتديتُ حجابي بسرعة..

- تفضل!

كانت دكتورة **"مها"**، ابتسمتْ لي ابتسامتها الجميلة.. ثم جلست على الأريكة وقالت:

- كيف حالكِ آنسة **"بتول"**؟

أجبتُها أنني بخير، ثم قلتُ لها بحرج:
- هل هناك مانعٌ إن ناديتِني دون ألقاب.
ابتسمت باتساع، وقالت:
- لا، ليس لديّ مانع.. وأنتِ أيضاً نادِني دون ألقاب..
أيضاً ما رأيكِ أن نكون صديقات؟

*****

"مها"

لم يُخبرني المدير، د. **"هيثم"**، أي شيء عن طبيعة حالة **"بتول"**.. فقط قال لي أنني يجب أن أتواجد معها في جلسة العلاج هذه، وأن أنسى أي شيء أسمعه منها في هذه الجلسة..

من الوهلة الأولى، وعندما رأيتُها.. شعرتُ كم هي لطيفة ورقيقة، وبريئة.. عيناها أخبرتاني بذلك، كما أن ملامحها جميلة.. وجهٌ أبيض دائري، رموشٌ طويلة جميلة، عينان سودواتان..

عرضتُ عليها أن نُصبح صديقات، فرأيتُ التردد بعينيها.. لا أعلم، ولكن أشعر أنها انطوائية.. أو لا تحب تكوين صداقات..

تجاهلتُ صمتها، وأخبرتُها بابتسامة:

- حسناً ما رأيكِ أن نذهب للتسوق؟

احمرّت وجنتاها، وأجابتني:

- أنا آسفة، بالنسبة لعرضكِ الأول.. فأنا موافقة بكل تأكيد.. أما التسوق.. فأنا حالياً لا أملك مالاً.

يا إلهي! لقد احمرّت وجنتاها من الحرج، فقط لأنها لم تردّ عليّ؟ حسناً إنها بالفعل لطيفة، ومرهفة الحسّ..
أخبرتُها بابتسامة:
- لقد أرسل دكتور **"هيثم"** بعض الأموال لكِ.. قال أنه اتفق مع والدتكِ بشأن كل شيء.
حسناً، بما أني لا أعلم بالضبط ما حالتها، لذا أخبرتُها بما قاله لي دكتور **"هيثم"**..
رأيتُ نظرة التردد في عينيها، ثم تنهدت وقالت بابتسامة:
- حسناً.. هل يمكنكِ انتظاري حتى ارتدي شيئاً جيداً؟

*****

بعدما عاد للمنزل، وجلس قليلاً.. تذكّر شيئاً، فاتصل على دكتورة **"مها"**.. أخبرها أن تذهب مع **"بتول"** لشراء أي شيء لها تريده.. ونبّه عليها ألا تقترح عليها أي شيء.. يريدها أن تختار بمفردها، وتشتري بمفردها.. وتُقرر بمفردها..

زفر الهواء بتعب، ثم همس لنفسه ويكأنه يحادثها:
"اقتربنا يا **"بتول"** بإذن الله.. نحن نرسم سوياً نهاية معاناتكِ.. وأسأل الله أن يمدّ في عمرنا، ونرسم سوياً بداية حياتِنا الجميلة.. أنا وأنتِ، وفقط"

*****

بعد أسبوع، كانت تجلس بغرفتها تبكي.. هي تفتقد والدتها بشدة، وتشعر أنها دونها لا شيء..
حتى عندما ذهبت للمول مع الدكتورة **"مها"**، لم تشعر بذات الراحة التي تشعرها وهي مع والدتها.. خصوصاً أنها لا تستطيع فعل شيء دونها..

اضطرت لاختيار ما اشترته بمفردها، حتى أن دكتورة **"مها"** رفضت مساعدتها بشكل قاطع..

طُرق الباب، ودخلت الممرضة التي تعتني بها.. سيدة في الأربعين من عمرها.. طيبة وحنون، تذكّرها بوالدتها بشدة.. ما إن رأتها الممرضة تبكي، حتى أسرعت لها وأخذتها في حضنها.. كانت تربّت على ظهرها بحنان وهي تهدئها..

- شش، اهدأي يا حبيبتي.. ماذا حدث؟

لم تُجبها **"بتول"**، مما أقلق الممرضة.. فأعادت كلامها:

- هل ضايقكِ أحد؟

فلم تُجبها أيضاً، فأمسكت الممرضة هاتفها وأرسلت رسالة.. دقائق، وكان دكتور **"هيثم"** يُسرع الخُطى نحو غرفتها.. شعر بانقباضة في صدره، وأنه إذا ضايقها أحد سيقتله حرفياً.. لا مجازاً**!**

كان الباب موارباً، فاستأذن للدخول..

وما إن سمعت **"بتول"** صوته، حتى حاولت أن تُهدئ نفسها.. تشعر بالأمان عند وجوده..

كفكفت دموعها بيديها، ولكن ما زالت شهقاتها تفضحها..

صاح بقلق:

- **"بتول"!** ما بكِ يا حُ..

قطع كلامه بحرج، كاد يقول لها **"حُلوتي"**.. سبّ نفسه، "ما بكَ يا **"هيثم"**؟! أصبحتَ مُرهف الحسّ على آخر عمرك!"..
لاحظت الممرضة قلقه الشديد عليها، وهدوء الفتاة النسبي ما إن أتى.. ابتسمت باتساع، "يا لهما من عاشقَين جميلين! يليقان ببعضهما" قالتها لنفسها بفرح..

*****

"هيثم"

ما إن أرسلت إليّ الممرضة، أن **"بتول"** تبكي دون انقطاع، ولم تخبرها بالسبب.. خرجتُ بسرعة، تجاه غرفتها..
يا الله! هل حُكم عليّ أن أراها حزينة ولا أستطيع حتى قول شيء يواسيها.. إلى متى سيستمر ذلك؟
وما إن دخلتُ غرفتها، ورأيتُ هيئتها.. كل ما جال بذهني وقتها، أن آخذها على أقرب مأذون، ونعقد قرآننا.. ثم أحتضنها بشدة داخل أضلعي..
هذا هو الشيء الوحيد الذي سُيريحني!
سألتُها، ولكن تباً لي.. لقد كدتُ أُناديها ب**"حُلوتي"**.. شعرتُ بالحرج، خصوصاً أن الممرضة هنا.. ماذا ستقول عني؟
وقحٌ بلا حياء.. يا إلهي! يجب أن آخذ حذري..
لم تردّ عليّ، ولكني لاحظتُ أنها تقبض على يديها بشدة..
عقدتُ حاجبيّ، يبدو أنها تقاوم شيئاً ما!
قلتُ لها بهدوء:
- آنسة **"بتول"**، هل هناك أحدٌ ضايقكِ.. فقط أخبريني، وسيكون من دواعي سروري أن أدخل السجن بسببه..

قهقهت بعفوية، فشعرتُ أن الروح عادت إليّ.. وأن الأزهار نَمتْ داخل فؤادي..

"بتول"

شعرتُ براحة كبيرة ما إن أتى دكتور **"هيثم"**.. وعندما سألني ما بي، لم أستطع أن أجيبه بحضور الممرضة..
إضافةً إلى أني أشعر برغبة عارمة في احتضانه، فقبضتُ على يديّ بشدة، حتى شعرتُ أنها أُدمت..

تباً لكِ يا **"بتول"**، وتباً لأفكاركِ..
أعلم، هذا فقط جفافٌ عاطفي لأني بعيدة عن حضن والدتي منذُ فترة كبيرة.. وسيزول ما إن أراها..
أجبتُه بتقطع:
- هه هل يمكننا أن نذهب للحديقة، ونتحدث؟
أومأ بالإيجاب بهدوء، ثم سبقني إليها..

بعد خمس دقائق تقريباً، كنتُ في الحديقة أبحثُ عنه.. حتى رأيتُه يجلس على إحدى الكراسي، وفي الجوار عدد من الناس..
شكرتُه في سرّي، ثم أسرعتُ الخُطى تجاهه..

جلستُ بجانبه، وجعلتُ بيننا مسافة كافية.. عقد ذراعيه على صدره مُنتظراً أن أبدأ الحديث.. حمحمتُ بحرج، ثم قلتُ وأنا أنظر للأرض:
- متى ستأتي أمي لزيارتي؟
لم يُجبني لفترة، فنظرتُ إليه باستفسار.. ويا إلهي! هل عيناه جميلتان هكذا دائماً، أم أن الشمس هي من جعلتهما جميلتين؟ انتبهتُ لنفسي، فأسرعتُ أُشيح وجهي للناحية الأخرى.. يا الله! أستغفرك ربي وأتوب إليك..

*****

نزل للحديقة، واختار مكاناً به أُناس من حوله.. في الفترة القادمة ستكون الجلسات هنا..
نعم، مكتبه لا يُعد خلوة إلى حد كبير.. ولكن سيأخذ بأسباب العفّة، حتى يجعل الله له مخرجاً..
هو لا يثق بنفسه، وكيف ذلك وهو بشرٌ من لحم وطين..
يملك مشاعراً ورغبات، وقد يسيطر الشيطان على عقله ذات مرة، فيحدث ما لا يُحمد عُقباه!
أيضاً فهو يُفكّر جدياً بأن يعقد قرآنهما، حتى يستطيع أن يُكمل معها جلسات العلاج براحة أكثر.. وحتى لا يفعل أي معصية، كنظرٍ محرّم.. أو لمسة يد لا تجوز..

قاطع سيل أفكاره حمحمتها، فسؤالها.. صمتَ طويلاً، إذاً لقد كانت تبكي لأجل والدتها! وهذا يجعله مصرّاً على تأجيل زيارة والدتها قليلاً.. حمحمتْ تُنبّهه مرة أخرى، فأجابها بهدوء:
- حسناً آنسة **"بتول"**، ولكن للأسف سنؤجل هذا الأمر قليلاً.. يمكنكِ أن تحادثيها، ولكن ليس حالاً..
سنتحدث الآن قليلاً، ثم يمكنكِ فعلها، حسناً؟
تنهدت، ثم أومأت له.. نظر حوله، ثم ابتسم قائلاً:
- إذاً ماذا لديكِ من جديد؟

"هيثم"

ألقيتُ عليها سؤالي، مُنتظراً إجابتها.. وجدتُها تردّ عليّ بنبرة.. حزينة؟!

- أنا آسفة.

عقدتُ حاجبيّ، قائلاً بعدم فهم:

- ماذا؟

كررت، وقد بدأت الدموع تتجمع في عينيها:

- أنا آسفة لأني لم أخبركَ كل الحقيقة.. ولكني والله لم أستطع قولها كاملة وقت الجلسة..

أتعلم؟ عندما كنتُ صغيرة، كان أبي يُعاملني بلُطف شديد.. كنتُ مدللته، كان يفعل أي شيء أطلُبه منه.. كان دائماً يُظهر مشاعره لي، ويُخبرني أنه يُحبني..

لم يكن يمدّ يده عليّ قط، أو حتى يصرخ بي.. لا أعلم لمَ كلّ ذلك تغيّر عندما كبرت؟! أصبح يُعاملني بجفاء، أصبح يُفرغ غضبه بي بسبب أو بدون سبب..

أحياناً كثيرة، كنتُ أشعر أنه يتعمّد إهانتي حتى أردّ عليه.. ثم بعدها يشتمني.

ثم أخفت وجهها بين يديها، وقالت بصوت مكتوم:

- عيناه! يا إلهي! لقد كنتُ أخافهما بشدة.. كان ينظر لي نظرة تجعلني أريد الصراخ من الرعب.
ثم رفعتْ وجهها، ونظرت للا شيء، وأكملت:
- كنتُ أتجنبه، وأتجنب الحديث معه.. كنتُ أتحاشى النظر لعينيه..
هل تظن أنني كنتُ سعيدة بحالي هذا؟ لا وربّ الكعبة.. كنتُ أسمع من صديقاتي كيف يعاملهن والدهنّ.. كنتُ أسمع أناشيد تتحدث عن الأب، فلا أشعر بتلك السعادة.. فقط أشعر بالبؤس، وأبكي على الأنشودة.
صمتت هُنيهة، ثم قالت ببكاء:
- فقط أنا أريد أن أسأله شيئاً.. لماذا عندما كنتُ صغيرة ولا أعي شيئاً كان يتعامل معي بحنان.. وعندما كبرتُ وأصبحتُ في سنّ تحتاج لهذا الحنان لا أجده منه؟!
ثم ضحكت بسخرية، وقالت:
- أتعلم؟ كرهتُ كل شيء يتعلّق به.. نعم، ربّما أنا الآن لستُ مُتأكدة من مشاعري تجاهه، ولكن حتماً ما زالت ندباته محفورة في قلبي.
ثم انفجرت باكية بحُرقة.. فجذبتُ شعري للخلف بقسوة، يا الله! ألهمني القوة.. فقط القوة يارب!
أكملت حديثها بتقطّع:

- فقط أنا خائفة أن يغضب الله عليّ بسبب مشاعري الكارهة تلك.. كل ما أريده، هو أن أدخل الجنة معه ومع أمي.. وأنا متأكدة أن الله سيمحو من قلوبنا البُغض والقسوة والحقد.. وسيبقى اللين والطيبة والحنان، وكل المشاعر الجميلة..
هه هل سيعاقبني الله على كُرهي له يا دكتور **"هيثم"؟**
سألتْ، فزفرتُ الهواء بأسى.. ثم سألتُها:
- هل كنتِ تبرّينه؟ أم كنتِ عاقّة به؟ يعني، هل كنتِ تحاولين استرضاءه؟
بكت مرة أخرى، ثم أجابتني:
- لا أعلم.. فقط كنتُ أحاول تجنّبه، وحتى عندما أتعامل معه كنتُ أحاول الصمت والاستماع فقط.. كنتُ أتلقى توبيخه وغضبه، وأكتمه داخلي.. ثم أُخرجه على هيئة بكاء في حجرتي.
أخذتُ نفساً، ثم قلتُ لها بصراحة:
- حسناً، لستُ شيخاً لأفتي لكِ.. ولكنّي سأنقل لكِ فتوى مشابهة قد قرأتُها سابقاً..
مشاعركِ السيئة تجاه أحد والدَيكِ، إن ظلّت داخل قلبكِ ولم تُظهريها في تعاملٍ أو سلوك.. فبإذن الله لن يحاسبكِ الله عليها، وأنا أتمنّى ذلك..

أي أنكِ طالما لم تُظهري ردّ فعل سيء تجاه والدكِ، أو تعامليه بشكل يُغضب الله ﷻ، فبإذن الله ليس عليكِ شيء.
ثم صمتُّ قليلاً، وسألتُها:
- إذاً، بمَ تشعرين الآن؟ أعني بعدما بُحتِ بما كنتِ تكتمين.
رأيتُها تأخذ نفساً عميقاً، ثم قالت بهدوء:
- حسناً، أشعر بالراحة بشكل كبير.
قلتُ لها بهدوء:
- سنقوم الآن بتمرين.. ستأخذين نفساً عميقاً، ثم تخرجينه.. ستُكررين ذلك لخمس مرات.
رأيتُها تعقد حاجبيها، وتسأل:
- ولماذا خمس مرات تحديداً؟ لمَ لا يكون ثلاثاً، أو عشراً؟!
ضحكتُ بشدة على تساؤلها، الذي أكّد لي أنها بخير الآن..
أجبتُها بابتسامة بعد أن هدأتُ:
- يمكنكِ القول أني أحبّ الرقم خمسة.. والآن ابدأي!
فعلت كما طلبتُ منها.. وبعدما انتهت قلتُ لها بهدوء:
- ممتاز! والآن، أريدكِ أن تتذكّري كل الأشياء الجميلة التي قمتِ بها مع والدكِ.. أريدكِ أن تقصّي عليّ بهدوء، كل اللحظات اللطيفة التي صنعتماها سوياً، وأنا متأكدٌ من وجودها بحياتكِ.

عندما أخبرها بطلبه، شعرتْ هي برجفة داخل قلبها.. وبثانية تداعت داخل عقلها كل الذكريات والمواقف الجميلة!
كان يُراقبها بصمت، يعلم يقيناً أنها الآن تتذكر كل شيء..
فقط تحتاج لبعض الوقت حتى تستوعب جيداً..

ربع ساعة قد مرّت، قبل أن تبدأ بالابتسام وسرد كل شيء..
بدموع تنهمر هادئة على وجنتيها..

قصّت عليه كيف كان يجعلها تنام في حضنه وهي صغيرة..
كيف كانت تذهب معه في أي مكان يذهب إليه.. كيف كان يحتضنها عندما تبكي..
أخبرتْه كيف كان يوصلها للمدرسة كل يوم، والابتسامة تشقّ وجهه، أن ابنته قد كبرت وأصبحت تذهب للمدرسة..
كيف احتضنها، وأخذ يدور بها من شدة سعادته بنجاحها في المدرسة.. بل وعندما أقامت المدرسة حفل تكريم للمتفوقين، كيف كان في الصفوف الأولى من الحضور هو ووالدتها، مبتسمين بسعادة وفخر..
وعندما كبرت، وأصبحت في الثانوية.. كيف كان يشجعها طوال السنة، وكيف هدّأها عندما كانت قلقة من النتيجة.. و،

وكيف سجد باكياً من السعادة عندما حصلت على مجموعٍ عالٍ نهاية السنة..
تذكرت كيف كان يعود كل يوم من العمل، مُتعباً مُرهقاً.. فقط ليوفّر لها ولوالدتها مالاً وطعاماً وسكناً وملبساً..

بل وتخيلت كيف كانت ملامح وجهه عندما رُزق بها بعد طول انتظار، وكيف حملها رضيعة بين يديه.. وكيف قرّب فمه من أذنها وكبّر بسعادة.. وكيف قرّب أنفه منها، يشمُّ رائحتها الطفوليّة الجميلة..
تخيلت كيف كان يسهر بتعب وهو ووالدتها، بجانبها وهي تبكي كأي طفل رضيع.. وكيف كان يذهب لعمله مُرهقاً لأنه لم ينم جيداً بسببها..
تخيلت كيف كان يُلاعبها وهي رضيعة، ويسمع ملاغاتها.. كيف كانت تتعلم الكلام خطوة خطوة، والسير خطوة خطوة.. ولم يملّ هو منها أبداً، ولم تملّ والدتها منها.. بل على العكس، كانا سعيدَين بنمو وتقدّم طفلتهما الصغيرة..

كان **"هيثم"** يستمع لها بإنصات.. وقد صحَّ ظنّه، والدها لم يكن شيطاناً رجيماً، فقط هي لم تستطع فهمه.. وهو لم يستطع التعبير بشكل جيد بعد أن كبرت..

شعر **"هيثم"**، أن هذا السبب ناجمٌ عن شعوره بالخجل تجاهها وهي كبيرة فكان يُظهر القسوة نحوها، عكس داخله الذي هو بالطبع يُحبّها..

بعدما انتهت من حديثها، أخفت وجهها بين يديها وبكت بحُرقة قائلة:
- أنا آسفة.. آسفة، سامحني يا أبي.. لل لقد افتقدتُه بشدة.. كم كنتُ سيئة وكرهتكَ، ولكني الآن لا أكرهك.. فقط كنتُ أنانية.
نظر إليها بقلة حيلة، وقلب يحترق..
هذه المرة الكم، التي يراها تبكي ولا يستطيع فعل شيء لها..
فإما أنه أصبح عاطفياً جداً، وإما أنها بكّاءة جداً!
جذب شعره للخلف بقسوة، حتى شعر بالألم برأسه..

بعد ثوانٍ، حمحم يجذب انتباهها، ثم ناولها هاتفه قائلاً بهدوء:
- اا يمكنكِ محادثة والدتكِ.
تذكرت هي أن هاتفها بحجرتها، ولكنه بلا فائدة.. فقد انتزع منه **"هيثم"** شريحة الاتصال، لكيلا تحادث والدتها..
تحدثت إلى والدتها.. لم تُطل المكالمة حتى لا تشعر والدتها بحزنها وتقلق عليها، ثم أعادت له الهاتف وقالت بامتنان:

- شكراً لكَ دكتور **"هيثم"**، أنا الآن أشعر بسلام نفسي كبير.. جزاكَ الله خيراً.
ثم غادرتْ المكان بهدوء.. هو أيضاً يشعر بسلام نفسي، وراحة تتخلل جوانب روحه.. يحمدُ الله أنه كان سبباً في شعورها بذلك..

*****

"هيثم"

بعد ظهر اليوم التالي، كنتُ قد انتهيتُ من حالة كانت معي.. بسطتُ سجادة الصلاة، وبدأتُ الصلاة بهدوء محاولاً قدر الإمكان أن أخشع فيها..

الصلاة! مهما كُتب عنها وعن لذة المُقيم عليها الخاشع فيها، فلن تكون أبداً كالمجرّب.. وتلك المرات القليلة -للأسف- التي أشعر فيها بالخشوع والسكينة تتخلل جُنبات روحي، أحمدُ الله جل جلاله أنني مسلم.. وهذه ليست بُطولة مني، ولكنه فضلٌ من الله عز وجل..
جلستُ بهدوء بعد تسليمي، أدعو الله ليُريح قلبي.. ودعوتُ لوالديّ المتوفيين.. ثم وجدتُني أدعو ل**"بتول"** معي!
دعوتُ الله أن يُريح قلبها، وأن يرزقها السعادة.. و، وأن يجمع بيننا في الحلال..

أخذتُ بعدها نفساً عميقاً، ثم قمتُ من مكاني.. وضعتُ سجادة الصلاة على الأريكة، ثم اتجهتُ ناحية النافذة المُطلّة على الحديقة.. أغمضتُ عيناي أستنشق الهواء البارد، فشعرتُ برجفة بجسدي..

خمس دقائق، ثم فتحتُ عيناي لأراها.. كانت واقفة أمام رجل وامرأة، ومعهما فتاة صغيرة.. عقدتُ حاجبيّ بعدم فهم، فقد كانت توجه حديثها تجاه الرجل.. لا، لن أظل هنا وأنا لا أفهم ما يدور..

- آنسة **"بتول"!** هل كل شيء بخير؟
قلتُها بأهدأ نبرة ممكنة، وأنا أحاول التقاط أنفاسي.. كادت تتحدث، ولكن الرجل قاطعها بفظاظة:
- هذه الفتاة تتدخل بيني وبين ابنتي.
كدتُ ألكمه، مُهشماً أسنانه.. لم أكن قطّ أميل للعُنف، ولكن لأجل **"بتول"** قد أفعل ذلك.. اتجهت أنظاري بين ابنته -التي هي تقريباً في الخامسة عشر من عمرها- وبين **"بتول"** باستفهام..
فأجابت **"بتول"** بسرعة، وصوت متهدج:
- لل لقد كان يوبّخ ابنته أمامي بقسوة.. رأيتُه.
حاولتُ تهدئتها، شعرتُ أنها تكاد تدخل في نوبة بكاء.. وهذا البكاء لن يحرق أحداً سواي!
ثم قلتُ للرجل بعملية:
- سيدي.. هل هذا صحيح؟
ابتسم بسخرية، ثم أجاب بوقاحة:

- وما شأنكما؟ ها.. أليست ابنتي ومن حقي أن أربّيها كما يحلو لي؟ وكما يقول المثل "اكسر للبنت ضِلع، يطلع لها أربعة وعشرين".

هنا، ولم أتحمّل أكثر.. خصوصاً أنني شعرتُ ب**"بتول"** تكاد تفقد أعصابها وتصرخ به.. مع حساسية هذا الموضوع لها..

قلتُ له بهدوء:

- سيدي.. هل يمكننا التحدث على انفراد؟

ولم أترك له فرصة للرد، فسحبتُه من ذراعه المكتنزة.. بعدما وقفنا بعيداً عنهما، أخبرتُه ناصحاً:

- اعتبرها نصيحة من أخ أصغر، أرجوك سيدي كُن حنوناً ولطيفاً مع ابنتك.. لا توبّخها بقسوة أو تُعنّفها أو تسبّها.

عقد ذراعيه أمام صدره، ثم سأل بنبرة متهكمة:

- وهل أنتَ والدها؟ وكيف تكون التربية دون قسوة وحزم.

ألقيتُ نظرة خلف جسده الممتلئ، فوجدتُ **"بتول"** تبتسم للفتاة وتتحدث معها بلُطف.. أجبتُه بهدوء:

- سيدي، أنتَ تخلط بين الحزم والقسوة.. القسوة تعني العُنف، أما الحزم فقليلُه جيد، إلا أنه لا يكون كل الوقت.. كُن معتدلاً يا سيدي في مشاعرك، فلا تُظهر لها الدلال الزائد.. وأيضاً لا تُعاملها بجفاء تام فتكرهكَ.. أظهر لها

الدلال والحنان حينما تكون بحاجة إليه، وإذا رأيت موقفاً منها يستدعي الحزم، فافعل ذلك بتعقّل.. أيضاً فكُن حكيماً، لا تنصحها بوقت هي في حاجة لحضنك وحنانك.. ولا تتساهل معها بوقت هي في حاجة للحزم المعتدل والنُصح.
طبعاً شعرتُ على وجهه التردد وعدم الاقتناع، أعتقد أنه الآن يظن أنني أصبتُ رجولته في مقتل! ولكنني يجب أن أُخبره بذلك، وأنصحه ليعلم..

أمسك يد ابنته، ثم رحل وتبعتهما المرأة بهدوء..
تنهدتُ، ثم وقفتُ بجانبها على مسافة معقولة، وقلتُ بلَوم:
- أعتقد أننا سنتحدث كثيراً.. وكثيراً جداً آنسة **"بتول"**.
نظرت إليّ بصمت، ثم اتجهت ناحية المكان الذي جلسنا فيه البارحة..

كانت تهزّ قدميها بتوتر، فجلستُ وانتظرتُها لتبدأ..
- صلّيتُ الظهر، ثم نزلتُ لأتمشّى قليلاً في الحديقة.. إذ بي أرى هذا الأب مع ابنته، وكان يوبّخها على فعل قامت به..
قلتُ ليس لكِ شأن بهم، ولكن الفتاة! يدها التي تقبض عليها بشدة، عيناها التي لا تنظر بها لوالدها.. لمّا رأيتُ كل هذا،

كأن صاعقة ضربتني بعُنف.. لم يخطر ببالي شيءٌ، إلا أنني يجب أن أتحدث إلى هذا الرجل، لربما أُنقذ ما يمكن إنقاذه..
رأيتُ نفسي بالفتاة.. **"بتول"** المراهقة، ثم الشابة.. التي يحادثها والدها، وهي لا تستطيع النظر لعينيه..
أو يوبّخها بشدة على فعل تافه، فتقبض على يديها بأقصى طاقتها، حتى لا تردّ عليه بشيء لا يجوز..
ذهبتُ إليهم، وو وكما رأيتَ.
زفرتُ الهواء، ثم قلتُ بعتاب:
- ألم نُنهي هذه الصفحة؟ ألم نتذكّر الذكريات الجميلة؟ لماذا إذاً نجعل الأخرى السيئة تُنغّص علينا حياتنا؟!
فرّت دمعة من عينيها.. هل يجب عليها أن تختبر صبري؟ لماذا لا تستطيع الصمود إلى أن تذهب لحجرتها، ثم هي وشأنها؟! لماذا تُصعّب الأمور عليّ، وهي صعبة لوحدها؟!
جذبتُ شعري بقسوة، للمرة التي لا أعلم كم عندما أراها هكذا.. أُراهن أن شعري الكثيف سيخفّ جداً مع انتهاء فترة علاجها!
أجابتني ببكاء:
- والله أحاول.. فقط هذه الواقعة أعادت لي ذكرياتي.. تعلم؟ لم أخف نظرات والدها، ولا توبيخه.. فقط عندما رأيتُ ردة

فعلها، أرعبتني بشدة.. خِفتُ أن تُصبح مثلي، مذبذبة بين كُره والدها.. وبين أن يأخذها بحضن..
وفجأة وجدتُها تبكي بعنف شديد، وقد أخفت وجهها بين يديها..
شعرتُ بالهلع، وبانقباضة في قلبي.. لم أعلم ما بها، أو حتى كيف يمكنني أن أخفف عنها..
بدأتْ تتحدث بتقطّع:
- هه هل يمكنني أن أخبرك شيئاً، وأرجوك لا تسخر مني!
ابتسمتُ بحزن.. أنا؟! أنا يا **"بتول"** أسخر منكِ؟! ولكني لم أستطع سوى أن أقول لها، وأنا أشعر بغُصة في حلقي:
- اطمأني.. ليس من عملي فعل ذلك.
كادت تتحدث، ولكن ارتجفت شفتاها.. انتظرتُ منها أن تقول شيئاً، ولكن لم يقابلني سوى الصمت..
زفرتُ بإرهاق، ربما غيّرت رأيها..
حاولتُ تغيير الموضوع، فقلتُ بابتسامة:
- إذاً، ألن تخبريني ماذا قلتِ لتلك الطفلة؟
ابتسمت تمسح دموعها، فابتسمتُ باتساع على شكلها الظريف..
إلهي! انتبهتُ لنفسي، فأسرعتُ أنظر أمامي، وأنا أستغفر الله بضيق من نفسي..

أجابتني بهدوء:
- نصحتُها كيف تُعامل والدها، وكيف تتصرف معه..
وأخبرتُها أنه يُحبّها مهما كان قاسياً عليها.
ثم أكملت بنبرة باكية:
- و، وأخبرتُها أن قسوته، ما هي إلا قشرة خارجية لحبّه لها.

*****

"والدة بتول"

يا إلهي! لا أستطيع تصوّر أن ثلاثة أسابيع مرّت، وابنتي في هذا المركز.. أشعر أن عشرة قرون قد مرّت وليس بضعة أسابيع فقط!

لم أكن أحادثُها كثيراً، ربّما مرة كل يوم.. وقد كانت هذه أوامر دكتور **"هيثم"**..
لا أُنكر أن القلق ينهش داخلي عليها.. الشيء الجيد الوحيد، هو محادثتي للممرضة التي تعتني ب**"بتول"**، واطمئناني عليها..
أيضاً كان دكتور **"هيثم"** يحادثني باستمرار، ويخبرني أن **"بتول"** قد تحسنت كثيراً.. لذا غداً بإذن الله يمكنني زيارتها والجلوس معها قليلاً، ولكنها بحاجة للمكوث بعض الوقت في المركز..
زفرتُ الهواء بتعب..

*****

في اليوم التالي، كانت الساعة العاشرة صباحاً حين دخلتُ المركز.. استقبلني دكتور **"هيثم"** بابتسامة، ثم أوصلني لغرفتها، ورحل..
طرقتُ الباب، وفتحتُه، وقد كانت مفاجأة لها.. ركضت نحوي واحتضنتني بشدة..
جلسنا بعدها على السرير نتحدث.. لم تقصّ عليّ أي شيء حدث معها هنا، فسألتُها:
- لم تخبريني.. ماذا حدث؟ أعني، كيف أنتِ الآن؟
فابتسمت قائلة:
- ربّما لن أستطيع إخبارِكِ بشكل كامل.. ولكن كل ما يمكنني قوله، هو أنني أشعر أن روحي خفيفة.. لم يعد شيء يُثقل صدري.
ابتسمتُ لها، ثم مسحتُ على شعرها بحنان..

*****

"هيثم"

اليوم فرصتي لأحادث والدة **"بتول"**.. سأطلب يدها منها، وأنا واثقٌ أنها لن تردّني.. فلمَ سترفضني بالأصل؟ شابٌ ناجح.. يملك عمله الخاص، ربما أنا وسيمٌ إلى حد ما.. ربّما كنتُ أكبر من **"بتول"** بثمان سنوات، ولكنه ليس مُبرراً للرفض!

قابلتُها بعدما خرجت من حجرة **"بتول"**.. ابتسمت لي، ثم قالت بهدوء:
- شكراً لك على مساعدتك لها.. ربّما لا أعلم ما كان بها، ولكن واضحٌ جداً أنها تغيرت بشكل كبير.
ابتلعتُ ريقي بتوتر، ثم أجبتُها:
- هذا عملي.. وبالنسبة لما كان بها، فأنا أرجو منكِ يا خالتي ألا تسأليها أبداً.. كانت صفحة من حياتها، وأُحرقت.. ومن الأفضل ألا تتذكرها.
ثم صمتُّ أنظر للأرض بحرج.. وبعد ثوانٍ قلتُ لها:
- خالتي، أردتُ منكِ أن أتقدم لخِطبة الآنسة **"بتول"**.
وجدتُها تصرخ بي بحدّة:

- ماذا؟ هل انتهزتَ الفرصة أم نسيتَ أنها هنا للعلاج وفقط؟! هل تشعر بالشفقة نحوها وتريد أن تتزوجها؟ اسمع! ستعود ابنتي معي اليوم، ولن تمكث هنا.

ثم نظرت لي بحدة، وعادت ناحية غرفة ابنتها..

ذهبتُ وراءها بسرعة، ثم حاولتُ أن أشرح لها:

- أرجوكِ يا خالتي اسمعيني.. لن أتزوجها شفقة، أنا أحببتُ ابنتكِ قبل أن تأتي إلى هنا أصلاً.. أعدكِ أن أُعاملها كما يليق بوصية رسول الله.. فقط أعطِني فرصة!

نظرت لي بصمت، ثم قالت بعد هُنيهة:

- سأفكّر في هذا الموضوع.. ولكن **"بتول"** ستعود معي اليوم للمنزل.

اتسعت عيناي بهلع، وشعرتُ بروحي تُسحب مني.. فقلتُ لها بسرعة:

- ولكن، بقي بضع جلسات لم تُكملها!

ابتسمت بجانبية، وأجابتني:

- سآتي بها كل أسبوع إلى أن تُنهيها.. لا تقلق أنت!

ثم أكملت طريقها، فشعرتُ أن قدماي لم تعودا تحملاني..

*****

وقف بجانب الغرفة المُغلقة، مُسنداً رأسه على الحائط بإرهاق.. ليس إرهاقاً جسدياً، بل نفسياً..

بعد ربع ساعة، خرجت الأم مع ابنتها وكل منهما تحمل حقيبة.. ملامح الأم متجهمة، أما **"بتول"** فتنظر ل**"هيثم"** بتساؤل..
أغمض عينيه زافراً الهواء بقلة حيلة، ثم لحق بهما وهو يأخذ الحقيبة من كلتيهما..
قالت له الأم، بعد أن عرض عليها أن يوصلهما:
- شكراً لك.. سنذهب بمفردنا!
أخذ نفساً، ثم قال لها بهدوء:
- لا بأس، ليس لديّ عمل اليوم.. سأوصلكما في طريقي.
ولم يدعْ لهما فرصة، فسبقهما إلى سيارته..
وضع الحقيبتان، ثم وقف ينتظرهما بجانب السيارة..
كان يشعر بألمٍ فظيع في قلبه.. هل هذا هو الشوق؟ هي لم تغادر بعد، ويشتاق لها.. فماذا إن رفضت الأم أن تزوّجها له؟ كيف سيستطيع العيش أو التنفس.. أم هو الذي اعتاد وجودها في المكان؟
وصلتا للسيارة، ففتح لهما الباب الخلفي لتركبا..

لم يكن الوحيد الذي يشعر بالحزن، بل كانت **"بتول"** أيضاً تشعر به.. حزينة لأنها ربّما لن تراه ثانية بعد ثلاث جلسات.. لا تستطيع الجزم إن كانت أحبته أم لا، فقط هي اعتادت أن يكون موجوداً.. ربّما تنساه بعد رحيلها!

بعد ساعة بسبب الزحام، وصل لمنزلهما مع وصف الأم.. فتحت **"بتول"** الباب، ثم نزلت وحملت حقيبة ودخلت للعمارة.. أمسكت الأم الحقيبة الأخرى، وكادت تدخل لولا سماعها صوت **"هيثم"** يقول برجاء:

- أرجوكِ يا خالتي، فكّري بما قلتُه لكِ.

نظرت له، ولم تتحدث.. ثم صعدت لمنزلها..

ظلّ واقفاً بشرود، يستند على السيارة.. هو سيعترف لنفسه للمرة التي لا يدري كم منذ أن رآها..

هو يُحبّها، يُحبّها كما هي.. بخجلها، وشخصيتها الضعيفة.. هو تيقن الآن أنه لا يريد منها أن تذهب إليه للجلسات، إن أرادت هي أن تُكملها فلها ما تريد، ولكن هو لا يفرق معه أي شيء.. كل ما يهمه أن يجتمعا سوياً في الحلال.. وأن يضمّها لصدره بعمق، تلك الأمنية التي سيُجن إن لم يفعلها..

تنهد بأسى، ثم ركب سيارته، وانطلق عائداً للمركز..

*****

أسبوع كامل يتصل **"هيثم"** على والدة **"بتول"**، علّها تلين قليلاً له، وكان ردها دائماً "سأفكّر قليلاً!".. ثم تُغلق المكالمة بابتسامة ساخرة.. ولكن داخلها كان سعيداً بهذا الشاب العاشق..
قررت ألا تزيد جرعة الاختبار، حتى لا يملّ ويترك ابنتها..
فواضحٌ على **"بتول"** أنها تُكنُّ له مشاعراً.. فمنذُ أن عادت، وغشاءٌ من الحزن يُغلف عينيها الجميلتين..
عموماً، فغداً يوم الجلسة.. وستخبره بقرارها في المركز..

*****

"هيثم"

في هذا الأسبوع، ظللتُ أُلحّ على والدة **"بتول"**..
لا أستطيع إخراجها من قلبي.. أما عقلي فكان في صِراع رهيب، أن تعوّدي هذا وراءه كمٌّ من السيئات.. فحاولتُ أن أصنع وِرداً للاستغفار.. لي ولحبيبة قلبي **"بتول"**.. علّ مُماطلة والدتها بسبب ذنبٍ ارتكبتُه أنا، أو هي!
رغم ذلك، لم أستطع تخطّي مدى سعادتي بمجيئها غداً للمركز بإذن الله..

*****

استيقظتُ باكراً، ثم قمتُ بما أفعله كل يوم.. صلاة، إفطار..
ثم خرجتُ مُتجهاً للمركز..
أعتقد أنهما لم تصلا بعد، فدخلتُ مكتبي ثم جلستُ هناك نصف ساعة أُمهر أوراقاً بتوقيعاتي..

بعد خمس دقائق أخرى، رأيتُ الباب يُطرق.. فابتسمتُ لرؤيتهما.. جلست **"بتول"**، بينما والدتها قالت لي بهدوء:
- دكتور **"هيثم"**، هل يمكننا أن نتحدث سوياً؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، ثم اتجهتُ معها خارج الغرفة..
نظرت لي لثوانٍ، ثم قالت:
- أنا موافقة على طلبك.. ولكن لديّ شروط.
ابتسمتُ لها، قائلاً:
- وأنا موافقٌ على جميع شروطكِ.
أعتقد أن ابتسامتها كانت ساخرة، لأنها قالت وكأنها لم تسمعني:
- ستُحدد معي موعداً، لتجلسا فيه معاً أمامي وسيأتي عمّها وجدّها كذلك.. إن وافقت هي، فلا حديث على الهاتف بخلوة، ولا خروج من المنزل بمفردكما.. وإن علمتُ أنكَ كذبتَ عليها أو أحزنتها ولو مرة، فالويلُ لك أيها الطبيب!
ابتسمتُ لها بلُطف، وقد علمتُ أن تهديدها نابعٌ من حُبّها لابنتها وخوفها عليها.. أجبتُها بهدوء:
- لا تقلقي يا خالتي.. لن أؤذي **"بتول"** بإذن الله، فلا أحد يؤذي نفسه وروحه!
هزت رأسها، قائلة بسخرية:
- لاحظ أنك قد أخذت راحتك في الحديث عنها وعن مشاعرك! ألا تراعي أنني والدتها وأقف أمامك؟
كنتُ أريد تقبيل يديها ورأسها كما كنتُ أفعل مع أمي، ولكني اكتفيتُ بقولي بابتسامة:

- أنا اعتبركِ كأمي، كما أنكِ أمها.. فهلّا اعتبرتِني كذلك؟

*****

دخل **"هيثم"** الغرفة، بينما ظلّت الأم بالخارج تنتظر ابنتها..
جلس وراء المكتب، ثم رفع نظارته على أنفه بشكل جيد وقال لها بابتسامة:
- كيف الحال يا آنسة **"بتول"**؟
اعتدلت في جلستها، وأجابت بهدوء:
- الحمد لله، بخير.
سألها:
- هل هناك من جديد؟ هل انتهت نوبات البكاء التي حدثتِني عنها مثلاً؟
هزّت رأسها نافية، ثم أجابته:
- لا يوجد جديد.. بالنسبة لنوبات البكاء، فلا.. لم تعد تزورني منذ أسبوعين.
تمتم "حمداً لله**!**" ثم قال لها بهدوء:
- آنسة **"بتول"**، قد ترين أنه من الغريب أن يسأل الطبيب مريضه هذا السؤال.. ولكن، هل أنتِ فعلاً بحاجة لهذه

الجلسات؟ أعني، هل إذا فكّرتِ جيداً ستشعرين أنكِ تحتاجين لها، أم لا؟

صمتت لثوانٍ تستجمع كلماتها، ثم أجابته:

- في الحقيقة، لقد أتيتُ هنا لكي أستشير شخصاً ذا علمٍ بما أشعر به.. لم يكن في ذهني إطلاقاً أنني سأمكثُ هنا بسببٍ تلك الأشياء.

ردّ عليها بدهشة:

- ولكنكِ لم تمكثي هنا بسبب تلك الأشياء.. لقد أردتكِ أن تبقي هنا، لتتعلمي الاعتماد على نفسك بعيداً عن والدتكِ.. فقد لاحظتُ كم أنكِ متعلّقة بها.

ثم صمتَ قليلاً، وقال بابتسامة:

- إذاً ليس لديكِ شيء لتتحدثي عنه؟

هزت رأسها بالنفي، فقال لها بمزاح:

- إذاً لمَ أتيتِ هنا اليوم؟

هزت كتفيها قائلة بلا مبالاة:

- موعد جلستي اليوم فأتيتُ.. لم أكن أعلم أنني ليس لديّ شيٌء لأحكيه.

كادت تُفلتُ منه ضحكة على لطافتها العفوية.. ولكنه حمحم قائلاً:

- إذاً، لقد انتهت الجلسة.. يمكنكِ الخروج، ولا أعتقد أننا سنحتاج لجلسات أخرى بإذن الله.
ومع نهاية جملته، شعر بحزن يغمره.. ولكنه هدأ نفسه قائلاً أنه سيخطبها بإذن الله..
أما هي، فشعرت وهي تقوم وكأن أثقال الدنيا ملأت روحها..
عجيبٌ أمر الحبّ.. أُيعقل أن يحلّ الأمان بوجود شخص، وأن يرحل مع عدمه؟!

*****

"بتول"

لقد مرّ أسبوع على آخر مرة رأيتُه فيها.. ومن وقتها وأنا أشعر بالفراغ ولا شيء سواه..
واليوم الجمعة.. قالت لي أمي أن أرتدي شيئاً جيداً لأن عمّي وجدّي سيأتون وبصُحبتهم ضيوف.. لم أحتج لكثير ذكاء لأعلم أنهم ضيوف سيطلبون يدي..
قررتُ أن أرفض هذا العريس، ليس لأني مُعجبة بدكتور **"هيثم"**.. بل لأترك لنفسي وقتاً لأنساه..

*****

ربع ساعة، وخرجتُ لأسلم على أقاربي.. ثم دخلتُ للغرفة لعلمي أن الضيف غير المرغوب به، قد وصل..
كنتُ بغرفتي أبتسم بشرّ وأنا أخطط للكلمات التي سأجعله يفرّ هارباً مني بها..
دخلت عليّ والدتي لأخرج، فانصعتُ لها محاولةً أن أداري ابتسامتي الخبيثة.. ولكن تبدّل كلّ ذلك عندما رأيتُه!

اتسعت عيناي من الصدمة! هل قلتُ أنه غير مرغوب به؟ تباً لي.. هل قلتُ أنني سأجعله يفرّ مني؟ بل على العكس، سأدعو الله أن يوافق عليّ..
جلستُ على الكرسي الذي يُقابله، ثم ركزتُ بصري على الأرض.. وكأنني أحاول أن أثقبها بنظراتي!

قام عمّي وجدّي وأمي، بعدما تحدثوا قليلاً.. ليجلسوا في الغرفة التي تقابلنا..

جلسنا نتحدث قليلاً، أو بالأحرى كان هو الذي يتحدث بحماس.. أما أنا فجلستُ أستمعُ له باستمتاع..
بعد ساعة تقريباً، نادي على عمّي وجدّي.. فأتوا جميعهم، فنظر لي ثم أعاد نظره لهم وقال بابتسامة:
- لنرى رأي العروس، فإن وافقت نتفق على ما تريدونه..
شعرتُ بالخجل الشديد.. لم أكذب يوم قلتُ أنه جريء!
نظرتُ لأمي باستغاثة، فقالت بابتسامة:
- السكوتُ علامة الرضا.. مُباركٌ لكما!

اتجهتُ أنا للداخل، لأدعهم يتحدثون.. ولكني وقفتُ خلف الستارة لأسمعهم..

فجأة، وجدتُ صوت أمي يعلو، قائلةً بحدة:
- هل تمزح أيها الفتى؟ تريد عقد القرآن بعد أسبوع من الآن؟!
وضعتُ يدي على فمي كاتمةً الضحك بشدة.. يا له من مجنون عاشق..!

*****

بعد شهرين من الخِطبة.. كانت تجلس على الأريكة، ترتدي فستاناً جميلاً باللون النبيذي متماشياً مع لون بشرتها.. صففت شعرها الأسود بطريقة جميلة.. إضافةً إلى وضعها لزينة بسيطة، لم تفعل شيئاً سوى إظهار جمالها أكثر..
كانت متوترة، وكيف لا تفعل واليوم عقد قرآنها..
خرجت والدتها إلى حيث تجلس.. نظرت لها بابتسامة واسعة، ثم ذهبت واحتضنتها بسعادة..
ما إن وجدتها **"بتول"** بدأت تذرف دموعاً، حتى شهقت بألم قائلةً لها:
- لا يا أمي، أرجوكِ لا تبكي.. أصلاً اليوم عقد قرآن فقط.. كما أنكِ لو بكيتِ، فسأجعله يُلغي الأمر برمّته.
ضحكت الأم من بين دموعها، ثم قالت بمزاح:
- لن يستسلم، وسيختطفكِ مني.
ثم كفكفت دموعها، وقالت بابتسامة:
- يا صغيرتي! هذه ليست دموع حزن، هذه دموع السعادة لأنني أراكِ الآن عروساً..
لن تشعري بمثل شعوري الآن، إلا عندما تصبح ابنتكِ عروساً..
عندما كنتِ ترينها تركض وتلعب في أرجاء المنزل، ثم تمرّ الأيام وتكبرُ وتُصبح جميلة ومتفوقة.. أنتِ لن تشعري أنها

كبرت، لأنها ستظل بعينيكِ صغيرة دائماً.. حتى عندما تذهب لمنزل زوجها.. أنتِ سترينها طوال عمركِ تلك الطفلة التي تملأ المنزل بضحكاتها ومشاغبتها.

بكت **"بتول"** كثيراً على حديثها، ثم قالت بتقطّع:

- كلامكِ جعلني أقرر.. لن أتزوج!

كادت الأم تردّ عليها، ولكنهما سمعتا صوت المأذون يصدح في مكبر المسجد الذي بجوار المنزل قائلاً:

"بارك الله لهما، وبارك عليهما، وجمع بينهما في خير.. ورزقهما الله الذرية الصالحة، آمين"..

عندها انطلقت زغاريد سعادة من والدتها.. وفي نفس اللحظة، وجدت صوت رسالة من هاتفها..

"وأخيراً أصبحتِ مِلكي.. أُحبكِ، حلالي!"

ابتسمت بوجنتين محمرّتين، وفي اللحظة التي كادت ترسل له رداً، سمعت جرس الباب يرن..

ذهبت الأم لتفتح الباب، وقد كان عمّ **"بتول"** وجدّها، وبالطبع **"هيثم"**، الذي وقف ينظر بتمعّن وإعجاب لما ترتدي..

سلمّا عليها وقبّلا رأسها، ثم رحلا بهدوء.. اقترب **"هيثم"** وسلّم على والدتها مقبّلاً يدها ورأسها بحنان.. فابتسمت

"بتول" لهذا المشهد اللطيف.. بعدها مدّ **"هيثم"** يده ليسلّم عليها، صافحته، فسرت في جسدهما رعشة لطيفة..
قبّل جبهتها بحب، ثم أمسك يدها جالسيَن على الأريكة..
قالت الأم بذكاء:
- سأذهب لأعدّ لكما شيئاً لتشرباه.
أومأ الاثنان بابتسامة.. ثم أعاد **"هيثم"** نظره لها بعشق..
خجلت من نظراته الثاقبة، فوضعت خصلة من شعرها خلف أذنها وقالت بخفوت:
- لم تخبرني برأيك فيّ.
همس بوله:
- فاتنةٌ كالعادة.. ولكنكِ اليوم فُقتِ العادة، أتعلمين لماذا؟
ابتسمت هازة رأسها بالنفي، فأكمل:
- لأنكِ أصبحتِ زوجتي، وحلالي.
نظرت للأرض بخجل من كلماته.. ثم رفعت رأسها قائلة تُشجع نفسها:
- هل يمكنني أن أقول شيئاً؟
أومأ برأسه، والابتسامة لم تفارق شفتيه.. فأكملت:
- أتذكرُ أول مرة جلسنا فيها في الحديقة؟ عندما نظرتُ لعينيكَ، أدركتُ أنني وقعتُ صريعةً لجمالهما.. تساءلتُ وقتها، هل هي جميلة أم أن هذا تأثير ضوء الشمس؟ ولكني

عرفتُ الإجابة بعدما جلسنا في الرؤية الشرعية، وفي كل يوم أتذكر شكل عينيكَ..
إنهما جميلتان حقاً.. وكيف لا تكونان كذلك، وهما عيناكَ أنت؟!
اتسعت عيناه من الصدمة والسعادة.. لا يُصدّق أنها تبثّه مشاعرها، بل وتتغزل بعينيه!
قالت له بابتسامة:
- أحببتكَ منذ ذلك اليوم، ربّما لم أكن متأكدة.. وربّما خفتُ ألا تبادلني مشاعري.. ولكني كنتُ قد أحببتك.

نعم.. هو تأكد الآن من رغبته باحتضانها بشدة، حسناً.. اهدأ يا **"هيثم"**، بُح لها بما بفؤادك أولاً ثم افعل ما شئت..
أخذ نفساً ثم قال بمرح:
- أما أنا، فقد سبقتكِ بكثير.. منذُ أن رأيتكِ في دار النشر، تأكدتُ أني أهيمُ بكِ.. وفي كل مرة كنا نجلس بها، كنتُ أسبّ نفسي إن لم تُصبحي زوجتي يوماً ما..
كنتُ أتقدم معكِ في الجلسات، ليس لي.. بل لنفسكِ وفقط..
وإن كان الأمر بيديّ، فأنا أحببتكِ هكذا.. بخجلكِ الزائد، ومشاكل الثقة التي تمتلئين بها.. لم يهمني مُطلقاً كونكِ ضعيفة أو قوية.. كل ما كان يهمني أن نجتمع سوياً بالحلال!

ثم صمتَ قليلاً، فوجدها تبتسم بتأثر..
من قال أنه وحده يرغب بعناقها، إنها تريد ذلك وبشدة..
ولكنه قاطع حبلُ أفكارها قائلاً بهمس عاشق، وهو ينظر لها بتمعّن:
- هل أخبرتكِ من قبل عن لوني المُفضّل؟ إنه الأسود دون شكّ..
عشقتُ الأسود، بعينيكِ الفاتنتيَن.. عِند النظر لهما، أشعر أنني غرقتُ في بئرٍ سحيقة.. ولا مُنقذ لي منهما سوى أهدابكِ السوداء.. أتعلّق بها، فأوقِنُ أنني قد شُبكتُ وعَلِقتُ.. فربّما يُساعدني شعركِ الفاحِم، الذي أتأكد تماماً من خطأي عِند النظر إليه.. وأوقِن وقتها أنني قد أصبحتُ أسير "سوادكِ" بشكلٍ، أو بآخر!
أنهى كلامه، فاحمرّ وجهها خجلاً منه.. أما عن قلبها الذي يطرق بعنف، وكأنه يريد أن يخرج.. فحدّث ولا حرج..
ضحك عليها بشدة، ثم قال بمزاح:
- هذا ليس عدلاً! لقد كنتِ تتغزلين بي منذ ثوانٍ ولم أخجل منكِ.
قالت له بحنق:
- هذا لأنك رجل!
ولكنه همس لها مُصححاً بابتسامة:

- هذا لأني أحبكِ!
نظرت له بابتسامة، ثم قالت بخفوت:
- أنا أيضاً أحبكَ.
طرق قلبه كأنه يقيم حفل زفاف صاخب.. ثم أمسك يديها، يضغط عليهما، ويكأنه يبثّ ما بداخله عبرهما..
نظرت لما يفعل بيديها، ثم قالت له بابتسامة:
- أتعلم أنك كنتَ حُلمي؟ لطالما تمنيتُ أن أتزوج كاتب رعب، أو طبيباً نفسياً.. وشاء الله أن يجمع بينهما فيك.
رفع يديها ليقبّلهما، ثم استقام وأوقفها معه قائلاً بحُب:
- منذُ رأيتكِ، وجلستُ معكِ أكثر من مرة.. وأنا أتمنى شيئاً واحداً بإصرار.
صمتَ، فسألته باسمة:
- وما هو؟
لم يُجب، ولكنه جذبها من يدها مُحتضناً إياها وكأنه سيُدخلها داخل ضلوعه.. شعر بالراحة الآن، فلطالما تمنّى ذلك..

أما هي، فاحمرّ وجهها من الخجل عندما علمت الإجابة..
فصلَ **"هيثم"** العِناق، ثم قبّل جبهتها قائلاً بهمس:
- أحبكِ **"حُلوتي"**.
كادت تُجيبه، ولكنها سمعت والدتها تقول بسخرية:

- يا سلام! ما أجمل الحبّ فعلاً..!
دفنت **"بتول"** وجهها المحمرّ بين يديها.. أما **"هيثم"**، فقهقه عليها بشدة.. سمعها تقول بصوت مكتوم "وقح"..
أمسك يديها لتنظر إليه، ثم قال بابتسامة:
- وقحٌ، ولكنه يحبكِ!
بينما الأم كانت تنظر لهما بسعادة، وقد اطمأنتْ أن ابنتها بأيدٍ أمينة.. مع شخصٍ سيتّبع وصية الرسول ﷺ معها.

تمت بحمد الله